الأخطاء الستة

للحركة الإسلامية بالمغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخطاء الستة
للحركة الإسلامية بالمغرب

انحراف استصنامي في التصور والممارسة

حقائق تاريخية ومقولات نقدية تنشر لأول مرة!

د. فريد الأنصاري

المُحتَويَات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١١
تمهيد: الحركة الإسلامية بالمغرب وقضية «الاستصنام المنهجي»!	١٩
الباب الأول: الأخطاء المنهجية الكبرىٰ للحركة الإسلامية بالمغرب	**٢٣**
الفصل الأول: استصنام الخيار الحزبي	**٢٥**
- علىٰ مستوىٰ الفهم التصوري للدين	٣١
- علىٰ المستوىٰ التربوي والدعوي	٣٢
- علىٰ مستوىٰ الأمانة الأخلاقية	٣٣
الفصل الثاني: استصنان الخيار النقابي	**٣٧**
الصنم «الأوطمي» وانهيار الأخلاق في الصف الإسلامي	٣٨
الفصل الثالث: استصنام «الشخصانية المزاجية» في الحركة الإسلامية	**٥١**
الفصل الرابع: استصنام التنظيم «الميكانيكي»	**٦١**
- استصنام «الأنا» الجماعي	٦٢
- استصنام الهوىٰ الديموقراطي	٦٢
الفصل الخامس: استصنام العقلية «الْمُطِيعِيَّةِ» وإفشال الوحدة التاريخية للحركة الإسلامية	**٦٧**
الباب الثاني: استصنام «المذهبية الحنبلية» في التيار السلفي	**٨٨**
الفصل الأول: تمهيد تاريخي	**٨٩**
الفصل الثاني: استيراد المذهبية الحنبلية باسم «الكتاب والسنة»	**٦٧**
الفصل الثالث: الأخطاء المنهجية للتيار السلفي في تدبير الشأن الدعوى بالمغرب	**١٠٥**

الموضوع	الصفحة

- **الخطأ المنهجي الأول**: الإعراض عن المذهب المالكي واختلال ميزان الأولويات ١٠٥
- **الخطأ المنهجي الثاني**: الغلو في التحقيقات العقدية ١١٢
- **الخطأ المنهجي الثالث**: مواجهة التصوف بإطلاق ١١٥
- **الخطأ المنهجي الرابع**: تضخم الشكلانية المظهرية ١١٩
- **الخطأ المنهجي الخامس**: الارتباط المادي المشروط ببعض الدول المشرقية ١٢٤

خاتمة **١٢٧**

إهـداءٌ .. بَل سلامٌ!

أما هذه الورقات فهي لكم أنتم!
إنني أشاهدكم وأنتم تولدون من رحم المستقبل القريب..!
عبر مخاضِ هذا الزمن العصيب!
إنني أشاهدكم كأجلىٰ ما تكونُ المشاهدةُ وأحلىٰ!
مِنْ عالمِ القرآنِ تَخرجون..
وبمنازل الصديقين تسلكون..
الربانيةُ وصفكم الجامع،
والعلم حدكم المانع،
إذا نطقتم فبحكمة،
وإذا سكتّم فعن فتنة!
توزعون رغيف العلم علىٰ الفقراء،
وترفعون ألوية القوة والسلام..
نعم سادتي.. أنتم الأولياء حقًا!
فعليكم من الله السلام!

محبكم: فريد الأنصاري

مدخل قرآني
قال الله جَلَّ عُلاهُ

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يظلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. بلغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتىٰ أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد؛

فهذه رسالة في نقد العمل الإسلامي بالمغرب، وليست في نقضه.

نصدرها اليوم بهدف الإسهام في الإصلاح الضروري لمنهجه؛ ومحاولة التقويم الداخلي لما اعوج من خطوه، ورد ما انحرف من قوله وفعله، غير ناقضين لأصله، ولا منكرين لفضله. ذلك أن النقد للدعوة الإسلامية ضروري كضرورة النار لتصفية الذهب، وكضرورة الجراحة لعلاج المريض. ومن قبل كتب ابن الجوزي رحمه الله في نقد العلم والعلماء كتابَه الرائد «تلبيس إبليس»، وصنف الإمام شمس الدين الذهبي كتابه النافع: «زَغَل العلمِ والطلبِ» في نقد مذاهب الفقه والفقهاء. ثم صنف الشيخ الإمام أحمد زَروق الفاسي -مُحتسبُ الصوفية- رسالته اللطيفة: «عُدةُ المريدِ الصادق»، في نقد شطحات التصوف وبدع الصوفية، وكشف أخطائهم التربوية، وإنما هو منهم؛ بل من أجل شيوخهم؛ وبذلك لُقبَ بـ «محتسبهم». ومثل هذا وذاك في التراث الإسلامي كثير.

وضرورة النقد للعمل الإسلامي اليوم آكد وأشد، خاصة والزمن زمن فتن! فتن ما مر مثلها قط في التاريخ الإسلامي! لا تصيب عوام الناس فحسب؛ وإنما تصيب العالمين في الصف الإسلامي أيضًا، أفرادًا وجماعات! وكأنها مقدماتٌ قريبة، ومُمَهداتٌ رهيبة لِمَا وصف النبيُّ ﷺ من فتن آخر الزمان، وذلك عندما قال في بيانه العجيب: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أو يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**»(١).

وقد أحاطت بالعمل الإسلامي من ذلك أدخنةٌ وأمواج، شطت به ذات اليمين وذات الشمال، فكثر المتساقطون من صفه فكرًا وممارسة، وانحرف السير كلية ببعض أجنحته وجماعاته؛ بسبب ما اعتراه من مرض «الاستصنام»، وهو داء عضال يصيب القلب، ثم يضخه مع الدم في الشرايين حتىٰ يستشري في الجسد كله! كما سيأتي بيانه بحول الله. وإنما المحظوظ من حفظه الله.

لقد أتىٰ علىٰ الحركة الإسلامية بالمغرب حين من الدهر كادت أن تكون هي المتنفس الوحيد للشباب المتدين، خاصة في مرحلة السبعينات والثمانينات من القرن الميلادي الماضي، إبَّانَ تَغولِ التيارات الماركسية الإلحادية المتطرفة، وتأسيس «دولة» صغرىٰ داخل الدولة، بالجامعات المغربية! في إطار نقابتهم الطلابية آنئذ، «الاتحاد الوطني لطلبة المغرب»، المختصرة في لفظ: (أُوطِم)، حيث كان الإلحاد موضة العصر الثقافية وخلفيته النضالية؛ فكان هو دين الدُّويلةِ «الأُوطميةِ» الرسمي! دُويلةٌ لها حكامها، ومليشياتها، ومحاكمها، وعقوباتها! تسهر علىٰ حماية ظلمها وظلماتها بالحديد والنار! حتىٰ كان مجرد النطق «باسم الله» جريمة تؤدي إلىٰ تكسير العظام وتحطيم الجماجم! وكيف لا؟ وها المبدأ الأول للخلفية الماركسية قائم علىٰ أن (لا إله والحياة مادة!) ثم كيف لا؟ وها القانون العام للممارسة النضالية مُؤطرٌ بالفكر الثوري الأحمر، والنهج الدموي الانقلابي، وفلسفة «ديكتاورية البروليتاريا»! فأنَّىٰ يُسمحُ للفكر الغيبي والدين «الرجعي الظلامي» (كذا)! أن يتسرب إلىٰ قطاع يعتبر هو قاطرة الحركة التقدمية بالمغرب؟!

---

(١) رواه مسلم.

تلك مرحلة عشناها بأحزانها ومآسيها ليس هذا مجال نقدها ودراستها، وإنما القصد هنا بيان بعض الجوانب التاريخية، من ظروف ميلاد الحركة الإسلامية بالمغرب، بإشارات فصلناها في مواطن أخرىٰ[1]؛ تمهيدًا للحديث عن طبيعتها وأصل منشئها، ثم صور تحولاتها وأسباب مزالقها!

كانت طليعة الحركة الإسلامية بتلك المرحلة عبارة عن مساحة خضراء؛ فيها يتنفس الشباب المؤمن، وفيها يرسم أحلامه، ويبني (مدينته الفاضلة) لأيام أو لساعات، مخيماتٍ ورباطاتٍ، كما كانت فضاء ربانيًا جميلًا، فيه تُعقد مجالسُ الروح وحِلَقُ الإيمان؛ لتغذية القلب، وصفل العقل، وعمران الوجدان. مجالس كانت عبارة عن معارج تصل القلوب بالسماء، وتخلصها من كابوس الفكر المادي وظلماته! نعم، لقد كانت محاضن الإيمان ترتقي بالشباب ليعيشوا أحوال نماذج القرآن، مع «رجال حول الرسول»؛ ويدخلوا رحلة البحث عن الحقيقية مع سلمان الفارسي، ويشتغلوا بتضميد الجراح مع عمار بن ياسر، ويتجردوا لحمل الأمانة مع مصعب بن عُميرْ! ثم يتدربوا علىٰ القبض علىٰ الجمر عبر «معالم في الطريق». وبين هذا وذاك يكون الاسترواح من لفح الصحراء «في ظلال القرآن».

حتىٰ إذا جد المسير، وانطلق العمل من «المنطلق»، واشتعلت نيران «العوائق»؛ بادرها الإخوان بماء «الرقائق»! واستنارات الليالي الخضراء بتلاوات شجية، تتنزل بردًا وسلامًا -في ثلث الليل الآخر- علىٰ قلوب باتت تتهجد في غرفها، لا ترىٰ من ملامحها إلا أطيافًا متلفعة بأجنحة الليل الساجي، صفوفًا صغيرة هنا وهناك، ينصتون إلىٰ القرآن ترتيلًا ملائكيًا يصل القلوب بالملأ الأعلىٰ! وقد كانوا حقًا: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

ومن هنا كان الطابع الغالب علىٰ العمل الإسلامي -في مرحلته الأولىٰ- هو التأسيس التربوي، والعمل التعليمي، والاشتغال بالمنهج الدعوي الخاص والعام لتجديد بناء النسيج الاجتماعي الديني؛ فأنبت ذلك المنهج جيلًا من أهل الفضل والخير، هم الآن مُربونَ وأُطرٌ شتىٰ، ينفع الله بهم البلادَ والعبادَ في شتىٰ

(١) ن. كتابنا: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي.

المجالات والقطاعات. واستمر الأمر علىٰ ذلك زمنا، ينتج ويربي علىٰ منهج الأنبياء والصديقينَ. إلىٰ أن نمت الأجسام الحركية وتطورت الأشكال التنظيمية، فكان الابتلاء الذي خسرت فيه الحركة الإسلامية كثيرًا! ظهرت فكرة التخصصات في العمل الإسلامي علىٰ جميع المستويات: الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والنقابية، والسياسية. وانطلقت الحركة الإسلامية تقسم ميراثها علىٰ أبنائها في حياتها! ولكن النتيجة أن كل التخصصات التي أُعلنَ عن ميلادها ماتت في مهدها، إلا التخصص السياسي! هو وحده نما وتضخم، واحتل كل المساحات الأخرىٰ! فأكلت السباع كل شيء! وصدق رسول الله ﷺ: فقد **(وَلَدتِ الأمة رَبتَها)** فعلًا! وبذلك شهدنا في الحركة الإسلامية نفسها مظهرًا من مظاهر علامات الساعة![1] كما سنفصل بعدُ بحول الله. وانسحبت التربية الإيمانية الدافئة من مجالس الإخوان، لصالح التربية السياسية القارسة! ثم انتصبت مرايا الأهواء والشهوات أمام الشباب، فتساقط الفراشُ علىٰ اللهيب! وكانت المأساة! وبدل أن تنتج الحركةُ الإسلاميةُ -هذه المرة- المؤمنين الربانيين، بمحاضنها الخضراء؛ بدأت تُفرخُ عَقاربَ خضراء! اندست بِخضرتها المموهةِ في خُضرةِ العمل الإسلامي، فكان الإسلاميون أنفسهم هم أول من تعرض للسعاتها السامة!

إن الناظر إلىٰ عجيج السياسة وضجيج الصحافة يظن أن العمل الإسلامي في المغرب اليوم -من حيث هو جماعات تنظيمية- بخير وعلىٰ خير! وأنه علىٰ مواقع متقدمة من معركته الحضارية الشاملة! لكن الحقيقة أنه قد تخلف عما كان عليه من قبل كثيرًا، وفشل فشلًا ذريعًا في الحفاظ علىٰ مواقعه الاستراتيجية التي كان قد استصلحها بمنهجه التربوي وخطابه الدعوىٰ الشعبي والأكاديمي؛ فكانت له مجالات حيوية، منها ينطلق وإليها يعود! إنه اليوم قد فقدها كليةً وخرج منها مطرودًا مدحورًا فصارت ظهوره عارية، مكشوفة لأعدائه الإيديولوجيين، تلفحها سياطهم علىٰ الهواء! حتىٰ انهارت صفوفه دون مقاصده الأصلية، قد أثخنته خناجر الأهواء والأعداء جراحًا بليغة!

---

(١) إشارة إلىٰ حديث جبريل المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي فيه: (قال فأخبرني عن الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!**» قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «**أن تلد الأمةُ رَبتَهَا، وأن ترىٰ الحفاةَ العراة العالة رِعَاءَ الشاء يتطاولون في البنيان!**» رواه مسلم.

لقد كانت أخطاؤه الجسيمة التي وصلت إلىٰ حد الانحراف التصوري والسلوكي، والخروج عن المنهج الإسلامي ببعض المواطن -كما سنفصل بَعدُ بحول الله- سببًا رئيسًا في دخوله مرحلة من العد العكسي، وبرزخًا من التراجع المنهجي! لقد تضخمت الأولويات السياسية -علىٰ المستوىٰ التصوري- في جماعة «العدل والإحسان»، واستبدت بها أحلام «الخلافة» إلىٰ درجة التخريف والهذيان! وتضخم العمل الحربي -علىٰ مستوىٰ الممارسة- لدىٰ حركة «التوحيد والإصلاح»، وانتفخ انتفاخًا سرطانيًا؛ حتىٰ أتىٰ علىٰ كل مكتسبات الحركة التربوية ومكاسبها الدعوية والاجتماعية. فآل أمر الجماعتين معًا -لمن حقق النظر فيهما- إلىٰ أن صارا وجهين لعملة واحدة! تلك علىٰ مستوىٰ التصور والممارسة الاستعراضية، وهذه علىٰ مستوىٰ برنامج الأولويات والممارسة الحزبية!

فعلىٰ هذا السياق كتبنا رسالتنا هذه. ولذلك ربما كان فيها -ببعض المواطن- شِدةٌ، لكنها شِدةٌ علىٰ قَدرِ ما وقفنا عليه في جسمها العليل من الداء، وعلىٰ درجة خطورة ما لاحظناه في خطوها من تداخل الأعمال بالأهواء! ثم علىٰ قَدرِ ما وجدنا بين أعطافها وحدائقها من عقارب! إلا أن ذلك لا يعني أبدًا أن الحركة الإسلامية شر كلها. كلا وحاشا! بل لقد كان لها الفضل الأول في السبعينات والثمانينات من القرن الميلادي الماضي -بعد الله تعالىٰ- في إيقاظ روح التدين بالبلاد. ومدافعة تيارات الزندقة والإلحاد! وما يزال كثير من العاملين في صفوفها من الصالحين المتقين، بل ربما وجدتَ منهم أحيانًا بعض الأولياء الربانيين الحقيقيين!

ثم إن الغاية من هذه الورقات إنما هي التنبيه إلىٰ ما قد اعترىٰ الصف الإسلامي من ثلمات، عسىٰ أن نبصر من ذلك ما يساعدنا علىٰ تلافي الشر. وأول العلاج كما يقال حسن التشخيص للأدواء، قبل بيان وصفات الدواء. أما المقترحات البديلة لما انتقدناه فلم نذكر منها ههنا إلا عبارات مجملة؛ عسىٰ أن تأتي -بحول الله- في بحث لاحقٍ يكون فيه بعض التفصيل[1]. مع أن قسطًا من

---

(١) نحن مشتغلون بتصنيف كتاب لهذا الغرض، يتضمن تصورات منهجية، وقواعد كلية، وموازين أساسية لما نرجو أن يكون بناء متوازنًا -إن شاء الله- للعمل الإسلامي، مؤصلًا في الكتاب والسنة، ومنزلًا =

ذلك قد اقترحنا بدائله في بعض كتبنا السابقة، ككتاب «البيان الدعوي» و«بلاغ الرسالة القرآنية» و«مجالس القرآن». هذا بالإضافة إلىٰ أن بعض الأمور المنتقدةِ لا تحتاج إلىٰ بديلٍ منتقَىٰ، وإنما هي في حاجة إلىٰ ترك وكَفىٰ؛ لأنها في نظرنا زوائدُ مُضرةٌ، وعراقيلُ مُحرفةٌ، لا يسلم السير إلا بتركها. وربما تزين الناس بالتخلي؛ قبل أن يتزينوا بالتحلي. ذلك وإنما الموفق من وفقه الله.

هذا، وقد جعلنا مجمل هذا التقييد -دون المقدمة والتمهيد والخاتمة- في بابين اثنين: الباب الأول: في الأخطاء المنهجية الكبرىٰ للحركة الإسلامية بالمغرب. وفيه خمسة فصول، ترجمنا في كل فصل منها لخطأ من الأخطاء الاستصنامية. والباب الثاني: في استصنام «المذهبية الحنبلية» في التيار السلفي. وجعلناه ثلاثة فصول، لخصنا فيها أهم الأخطاء المنهجية للفكر السلفي بالمغرب.

ثم إننا قبل إصدار هذه الورقات قد استشرنا مع بعض أهل العلم والفضل، باعتبار أنها قد تواجه تهمًا بالدعاية السياسية لصالح جهة ضد أخرىٰ، ممن لهم غرض في خوض غمار الانتخابات السياسية. وشهد الله أن قصدنا من ذلك براء! وأننا كتبنا ما كتبنا لله، ثم لخاصة دعاة المسلمين ولعامتهم. علىٰ مقتضىٰ حديث النبي ﷺ في النصيحة[1]. خاصة وأن مقولاتنا النقدية هذه، عامة شاملة، لا تتعلق بهذه الحركة دون تلك، ولا بهذا التيار دون ذاك، حتىٰ ممن لا غرض لهم في المعارك الانتخابية أصلًا، كالتيار السفلي مثلًا، وقد فصلنا في نقده تفصيلًا.

ثم إننا - قبل ذلك وبعده- وقد استخرنا الله تعالىٰ في الأمر؛ فترجح لنا -بناء علىٰ هذا وذاك، وعلىٰ تقديرات أخرىٰ رأيناها- أن نخرجها إلىٰ الجمهور؛ لكشف خطورة العقارب الخضراء في العمل الإسلامي! وما ألحقته من ضرر -وما

= علىٰ مقتضيات الزمان والمكان وظروفهما؛ عسىٰ أن نسهم في تصحيح المسار الدعوي بمنهج بنائي، راجين أن يكون هذا الكتاب -الذي بين يديك الآن أخي القارئ- هو آخر ورقاتنا النقدية للعمل الإسلامي بالمغرب خاصة. وما التوفيق إلا بالله.

(١) ونصه: عن تميم الداري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(الدين النصيحة**: قلنا: لمن؟ قال: **لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم!)** رواه مسلم. وروىٰ أيضًا عن أبي هريرة وابن عباس في كتب السنن.

تزال- علىٰ الدين وأهله، ما لا قِبَلَ للناس به! مُعرضينَ -في الوقت نفسه- عن كشف تفاصيل أدق، تتعلق في بعض الأحيان بأشخاص بأعيانهم؛ عملًا بالمنهج النبوي في نقده ﷺ لأصحابه علىٰ الإجمال، بتعبيره النبوي الشريف: **(مَا بَالُ قَوْم؟ أو مَا بَالُ أَقْوَام)**[1]. اللهم إلا من ترجح لدينا انحرافُه، وغلب في تقديرنا جهلُه وبهتانُه، فانخرمتْ مروءتُه، وسقطتْ عدالته! وصار رأسًا في الفتن، ورمزًا من رموز الدجلِ والدجنِ! بما تواتر عنه من خَرْمِ أحكام الشريعة، أو بما صرحَ هو نفسه من نقضٍ صريح للمقطوع به من كليات أُصول الدين! فمثل هذا لم نجد حرجًا في تخريجه؛ تعبدًا لله ببيان غيه وضلاله. ذلك، ثم نقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ **[الحشر: ١٠]**.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه -بمكناسة الزيتون- عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلىٰ رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تصنيفه في مسودته الأولىٰ يوم الجمعة: ٢٠ رمضان: ١٤٢٧هـ، الموافق لـ: ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

---

(١) هذا التعبير النبوي متواتر، فقد ورد في أحاديث صحيحة كثيرة، من مثل قوله ﷺ: **(أما بعد؛ فما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؟)** متفق عليه. وصح عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: (كان إذا بلغه عن الرجل شيءٌ لم يقل: «ما بال فلان يقول؟» ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟») رواه أبو داود. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

تمهيد

الحركة الإسلامية بالمغرب وقضية «الاستصنام المنهجي»!

تعيش الحركةُ الإسلاميةُ بالمغربِ -كما في بعض الأقطار الأخرىٰ- أزمةً حقيقةً! أزمةً تَرجعُ بالدرجة الأولىٰ إلىٰ كونها صارت عاجزة عن أداء وظيفتها الحقيقية، والقيام برسالتها الربانية، التي كانت هي مبرر وجودها، وشرط ميلادها، ثم مُسوِّغ إقبالِ الناس عليها في مرحلة سابقة. وقد حاولنا في هذه الورقات أن نرصد أهم المعوقات التي ضربتها في صُلب محركها، وخرقتها في إطار عجلتها؛ فأعجزتها عن السير في الاتجاه الصحيح، وانحرفت بها متدحرجة في المسالك الضاربة علىٰ غير هُدىٰ! وذلك بحصر كل إشكالاتها المنهجية في ستة أخطاء كبرىٰ، ذات طبيعة كلية، إليها يرجع أغلب الأخطاء الأخرىٰ التي هي من قبيل الجزئيات والفرعيات. وقد تبين لنا من خلال الممارسة الدعوية، والاحتكاك الحواري مع أغلب فصائل الاتجاهات الإسلامية بالمغرب، لسنوات عديدة أنها في خياراتها هذه التي نعدها اليوم أصول أخطائها المنهجية؛ قد وقعت في نوع من «الشرك الخفي»، أو ما أسميناه بـ «الاستصنامِ المنهجيِّ». وذلك أنها في بعض خياراتها الاستراتيجية الكبرىٰ صارت إلىٰ ضرب من «الانحراف» عَقرهَا عن السير في طريقها الأصيل، وأدىٰ بأشكالها التنظيمية ذاتها إلىٰ أن تصير حُجبًا لها هي نفسها عن النظر إلىٰ مقصد «إقامة الدين» في النفس والمجتمع، ذلك المقصد الكلي الذي رفعته شعارًا لها من يوم ولادتها.

وقد استفحلت تلك الخيارات/الإشكالات، واستطالت عليها، بحيث صارت معوقات ذاتية، تحجب عنها الرؤية الواضحة إلىٰ الأفق! وتمنعها من النظر النقدي إلىٰ فكرها، ومن المراجعة الإصلاحية لسيرها؛ حتىٰ رسخت أشكالُها في الواقع رسوخًا حَولها -في ذهنها- من رتبة «الصواب» إلىٰ رتبة «الحق»! فصدها ذلك من مجرد محاولة وضع السؤال -الضروري لكل فعل بشري- عن مدىٰ صوابية خطواتها، وسلامة سيرها، وصحة مواقفها؛ بله المحاسبة النقدية لتصوراتها واختياراتها! تمامًا كما وقع لِبلقيسَ مَلكةِ سَبأ من صَدٍّ وحَجبٍ عن إدراك الحقيقة أول الأمر؛ بسبب الحُجبِ الشركيةِ التي كانت تسكن عقلها، وتملأ وجدانها، رغم ما شهدته من معجزات ربانية وبراهين توحيدية: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ **[النمل: ٤٣]**. ولذلك كانت في حاجة إلىٰ «صَدْمَةِ الصرحِ» التي أيقظتها من غفلتها! حيث أُلقيَ بها في لُجةِ الحقيقة إلقاءً، فخاضت عُبابَها بذاتها ووجدانها؛ كي تتطهر من أدرانها وأهوائها، وتنجليّ الحجبُ الكثيفة عن بصيرتها! وتلك كانت لها تجربة ذاتية عميقة، أدخلتها في مواجهة أنوار الحقيقة مباشرةً، فشاهدت الفرق الشاسع بينها وبين أوهامها! وذاك قول الله جل علاهُ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **[النمل: ٤٤]**.

إن الحُجُبَ الشركيةَ التي صَدتْ مَلكةَ سبأ عن مشاهدة حقائق التوحيد، ومنعتها عن إدراك خطئها الاعتقادي، قد انتصب اليوم ما يشببها -من الناحية المنهجية- في وجدان الحركة الإسلامية! وذلك ما أسميناه بـ «الأصنامِ المنهجيةِ»، أو «الاستصنامِ المنهجي»؛ إذ أنها بما بلغته من أشكال التقديس لاختياراتها، والتنزيه لتصوراتها، وجعلها فوق النظر النقدي والمراجعة الحقيقية، بصورة شعورية أو لا شعورية؛ قد جعلها «تَستصنمُ» أخطاءَها بالفعل، فانتصبتْ أوثانًا معنوية بعقلها ووجدانها، وَجعلتْ تصدها عن الإدراك السليم والسير القويم! ولا خلاص لها إلا بـ «صَدمةِ صَرحٍ» من نوع آخر، «صَدمةِ صَرحٍ» تُخرجها من أوهامها، وتحطم الأصنام المنتصبة في مخيلتها! وتهدم الأسوار الحاجبة لها عن مشاهدتها! و«صَدمةُ الصرحِ» ههنا إنما هي «صَدمةٌ تَفقهيةٌ»، وذلك بِدخولٍ علميٍّ

تَعبديٍّ صادقٍ، إلىٰ صَرحِ القرآن العظيم، وبياناته النبوية الواضحة، من خلال قواعد العلم، ومواجيد الإيمان. ثم عرض اختياراتها الاستراتيجية علىٰ موازينه؛ لإدراك مدىٰ الفرق الرهيب بين الحقيقة والتمثال!

وعليه؛ فإن الاستصنامَ الحاجب للحركة الإسلامية اليوم، عند استقراء طُوبهِ وأحجارِه، واستقصاء ما رَفعتهُ من نُصبٍ علىٰ أسواره؛ يرجع -كما ذكرنا- إلىٰ ستة أخطاء منهجية كبرىٰ، هي المرجع الكلي للانحراف، والسبب الجامع للاستصنام! أخطاء تجسدت بصورة خشنة في فكر الإسلاميين وممارساتهم التنظيمية! فتعلقت بها قلوبهم رغبًا ورهبًا! وخلعت عليها من التنزيه والتقديس ما جعلها طواغيتَ وأصنامًا، تحجب القلوب عن إخلاص الدين لله! وهي:

- **الخطأ الأول**: استصنام الخيار الحزبي.
- **الخطأ الثاني**: استصنام الخيار النقابي.
- **الخطأ الثالث**: استصنام الشخصانية المزاجية.
- **الخطأ الرابع**: استصنام التنظيم الميكانيكي.
- **الخطأ الخامس**: استصنام العقلية المطيعية.
- **الخطأ السادس**: استصنام المذهبية الحنبلية في التيار السلفي.

وقد عقدنا لكل منها فصلًا أو بابًا؛ علىٰ حجم ما وجدنا فيها من قضايا وإشكالات.

هذا، وقد يستغرب البعضُ جَمعنا للتيار السلفي مع «الحركة الإسلامية» في ملف واحد، والجواب أنه -فعلًا- هو كذلك ملف واحد، كما سترىٰ بدليله إن شاء الله. بالرغم من أن السلفية المتأخرة صارت تتبرأ من مفهوم «الحركية». فعلاوة علىٰ أن أخطاء أي صنف من أصناف العمل الديني يبوء بمآلاتها الوخيمة، ونتائجها السلبية -في الواقع السياسي والاجتماعي- كُلُّ التنظيمات والتيارات الإسلامية، سلفية كانت أو غير سلفية؛ فإن نشأة الحركة الإسلامية بالمغرب كانت متلبسة بالفكر السلفي ابتداءً. ولم يحصل التمايز والافتراق إلا فيما بعد.

ثم إن التيار السلفي صار -من حيث يدري أو لا يدري- رقمًا سياسيًا، موظفًا في اللعبة السياسية الوطنية والدولية. خاصة بعد التطورات الفكرية والتنظيمية التي عرفتها بعضُ فِرقه، كما سنبين بهذه الورقات إن شاء الله.

هذا، وقد عبرنا عن مواقف الحركة الإسلامية إزاء الأخطاء الستة المذكورة -غالبًا- بمصطلح «الاستصنام»؛ لأن تلك الأمور ليست أصنامًا في حد ذاتها، ولكن طريقة تعامل الإسلاميين معها؛ بما خلعوه عليها من التنزيه والتقديس، ومن الانبهار والإعجاب؛ هو الذي جعلها أصنامًا معنوية بالفعل؛ فانحرفت بهم عن أهداف العمل الإسلامي ومقاصده؛ فكانت الأزمة! وبيان ذلك هو كما يلي:

الباب الأول
الأخطاء المنهجية الكبرى
للحركة الإسلامية بالمغرب

ترجمة الباب: قولُ الله جَل عُلاهُ

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]

الفصل الأول
استصنام الخيار الحزبي

لن أكون مبالغًا إذا قلت: إن اتخاذ «حزب سياسي» كان أكبر خطيئة وقعت فيها الحركة الإسلامية بالمغرب![1] لقد صار الإسلاميون يشتغلون في الشك، وقد

(١) أقول ذلك وأنا أؤيد وجود «حزب العدالة والتنمية»؛ ولكن في تركيا! إن اتخاذ حزب إسلامي صرف في تركيا قد فشل فشلًا ذريعًا! وعاش حياة متكسرة مع الزعيم المشهور «نجم الدين أربكان» سواء في «حزب الرفاه» أو في «حزب الفضيلة». ولقد خسر الإسلام في تركيا مع تجربة «أربكان» من المكتسبات أكثر مما ربح! إلىٰ أن انشق عنه ثلة من الشباب الأذكياء، بقيادة رئيس بلدية استنبول، ثم رئيس الحكومة التركية فيما بعد، السيد «رجب طيب أردوغان»، فأنشؤوا «حزب العدالة والتنمية»، الذي خاض تجربة جديدة بغير شعارات دينية، علىٰ خلاف تجربة «أربكان» ذات الشعارات الإسلامية الواضحة. وحزب العدالة والتنمية التركي -إذ أردنا توصيف حقيقته- فإننا نقول: هو حزب «علماني» يقوده رجال متدينون.
لكن الحكمة الراقية للتجربة التركية في مجال العمل الإسلامي أنها جعلت العمل الحزبي -ولا أقول «العمل السياسي» مطلقًا -عضلة واحدة من عشرات العضلات التي تعمل بها! وفصلت فصلًا واضحًا، لا لبس فيه ولا اشتباه، بين العمل الدعوي ومؤسساته التربوية والتعليمية والإعلامية والاقتصادية، وبين العمل السياسي في صورته الحزبية. سواء فيما يتعلق بالمؤسسات الإدارية أو ما يتعلق بالرموز القيادية والموارد البشرية والمالية. فكانت الحركة الدعوية هناك هي التي تُؤمنُ البنية التحتية للعمل الإسلامي جملة، كتأمين التدين العام، وتأمين التربية والتعليم، والاقتصاد، والإعلام، إلخ .. ومن ثم تصنع الرأي العام السياسي المتدين حقيقة، الذي يمنح الحزب السياسي أغلبية البرلمان ثم إمكانية تشكيل حكومة. إن النقل الكبير في تركيا إنما هو لدىٰ الحركة الدعوية وليس لدىٰ الحزب. فالأولىٰ تتحكم في الثاني من الناحية اللوجيستيكية، وهو يمدها بإمكانات جديدة لمجالات أخرىٰ من العمل الإسلامي، كانت ممنوعة عنها من قبل؛ وبذلك يتقدم العمل الإسلامي بالبلاد، ويحرز مكتسبات جديدة، رغم شدة الظروف المعروفة في دولة كمال أتاتورك! =

كانوا -من قبل- يشتغلون في اليقين! وكانوا إلىٰ الإخلاص في الأعمال أقرب، ثم صاروا إلىٰ خَلطٍ مبين! فانتقلوا بذلك من مقاصد العبادات إلىٰ مقاصد العادات! ألهاهم التلميع والتسميع، وانخرط كثير منهم في الحزب علىٰ حَرْفٍ! تماما كـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. إن اتخاذ «الحزب» في العمل الإسلامي هو أشبه ما يكون بـ «اتخاذ العجل» في قصة بني إسرائيل! إنه ما أن أمضت الحركة الإسلامية قرار «المشاركة السياسية»، حتىٰ تطور ذلك القرار بشكل سرطنا -باندفاع ذاتي، ودفع من جهات أخرىٰ- من مجرد «مشاركة» إلىٰ ثورة «تضخم سياسي»، أتىٰ علىٰ الأخضر واليابس من منجزات العمل الإسلامي، في موارده البشرية ومكتسباته الدينية في المجتمع العام -كما بيناه في كتابنا البيان الدعوي- لقد كان يوم إعلان اتخاذ حزب سياسي واجهة للعمل الإسلامي بالغرب هو يوم إعلان وفاة الحركة الدعوية، وبداية العد العكسي المنحدر نحو نهاية «أطروحة العمل الإسلامي» بشموليته الكلية، وهويته الإسلامية!

إن العمل الإسلامي في الأصل هو عمل تجديدي للدين بالدرجة الأولىٰ؛ بناء علىٰ الحديث المشهور، من قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(١) وما «الدين» إذا لم يكن هو هذا الإيمان الذي يربط العباد بالحقائق الغيبية؛ إيمانًا بالله وباليوم الآخر؟ وما تفرع عنهما من حقائق إيمانية أخرىٰ، ثم ما تقرر في أصول الإسلام من وجوب الدخول في أمهات العبادات والتنزه عن كبائر الخطيئات؛ طلبًا للفوز بجنات النعيم والنجاة من عذاب الجحيم! هذا هو أساس خطاب القرآن، وهذا أول ما ينبغي العمل علىٰ تجديده في النفس وفي المجتمع، وكل ما سواه من أمور الشأن العام إنما

= فعدم معرفة الفوارق بين الأوطان والبيئات، وعدم اعتبار الخصوصيات الثقافية والتاريخية والسياسية، يوقع التجارب الدعوية في المهالك! وتلك هي الحكمة التي أضاعها الإسلاميون المغاربة؛ باتخاذ حزب سياسي هم في غنىٰ عنه أصلًا! فتحول إلىٰ غول أتىٰ علىٰ هياكل الحركة الدعوية نفسها التي ولدته، وأتىٰ علىٰ تدين أبنائها! كما سيأتي بيانه أعلاه.

(١) رواه أبو داود واللفظ له، كما رواه الحاكم والبيهقي. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

هو تبع له والعكس غير صحيح، كما فصلناه في غير هذا المكان[1]. وكل ذلك لا يكون إلا بوجود قوم صادقين يجتهدون أولًا في التخلق بتلك الأعمال فعلًا وتركًا؛ علىٰ درجة من العلم والصلاح وتؤهلهم لمخاطبة عامة الناس من الشاردين والجاهلين. وذلك لا يكون إلا بأخذ كتاب الله بقوة! والدخول في تعلم بياناته النبوية، علىٰ مدارج التزكية والتعليم ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وعلىٰ هذا تأسس العمل الإسلامي بالمغرب ابتداءً، فكان عطاؤه الأول جيلًا من الخيرات والبركات. ثم جاء الحزب السياسي فأتىٰ علىٰ ذلك جميعًا! تمامًا كما دَمرَ «السامريُّ» كلَّ الرصيد الإيماني لبني إسرائيل، بعد غيبة موسىٰ؛ عندما صنع لهم -من الذهب- جسدًا، عِجْلًا له خُوَارٌ، فظلوا عليه عاكفين! قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نعم، لقد كان الحزبُ فتنةً حقيقةً للإسلاميين، كما كان العجلُ فتنةً لبني إسرائيل! وللذهب بريقٌ مادي فَتانٌ في قصة بني إسرائيل، كما أن له بريقًا معنويًا وماديًا فتَّانًا أيضًا في قصة الإسلاميين! ومن ذا قدير علىٰ مقاومة فتنة الذهب إلا القليل! ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾ [طه: ٩٠]. كذلك كان، والله المستعان.

ثم إن الاستصنام الحزبي جعل كثيرًا من أبناء العمل الإسلامي منشغلين بهموم الناس الدنيوية فقط! ثم جعلوا -بعد ذلك- لهمومهم الشخصية من تلك الهموم حظًا! وتدافع الهم الشخصي مع الهم العام في مقاصد بعضهم، فتكون الغلبة لهذا تارة، وتكون لذاك تارة أخرىٰ؛ علىٰ قدر قوة الإيمان وضعفه في نفس صاحبه مدًا وجزرًا. فانخرطوا بذلك -علىٰ كل حال- في بناء خطاب مادي بالدرجة الأولىٰ، يحلل الأزمات الاقتصادية ومشكلات البطالة، والرد السياسي علىٰ الهجومات الإلهائية، التي تصدر عن بعض متعصبي اليهود والنصارىٰ، أو عن بعض زنادقة المسلمين، فَيرجونَ المظاهرات وينظمون المسيرات، ثم يؤوبون في المساء إلىٰ

(١) البيان الدعوي: «الفصل الرابع».

مواقعهم سالمين، مطمئنين إلىٰ أنهم قد أنجزوا من «النضال» ما يشفه لهم عند الله يوم القيامة، عندما يُسألُ الناس عن دينهم ماذا فعلوا فيه!؟ ونسوا القضية الكبرىٰ: قضية الإنسان مع خالقه، ومصيره في آخرته! كيف كان في عَبديته؟ أمِنَ الأوابين التوابين أم من الآبقين الشاردين؟ ماذا كان تعامله مع رسالة ربه؟ وكيف كان تجاوبه مع نذارته وبشارته؟ ذلك ما لم تهتم به الحركة الإسلامية في خطابها الداخلي والخارجي إلا قليلًا قليلًا..! وتلك هي المشكلة! فالقرآن حسم الأمر بأنما المعول عليه في الدين يوم القيامة إنما هو كَسْبُ الإنسان في إيمانه، بمعنىٰ ما ترتب عن إيمانه بالله واليوم الآخر من العبادة والعمل الصالح. وما أشد هذه الآية من كتاب الله التي تجعل الإيمان الفارغ من كسب الخير غير نافع لصاحبه! قال جل ثناؤه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

إن القرآن عندما كان يعالج قضايا الاجتماع البشري كان يحوطها بترسانة من السوابق واللواحق المقالية، التي تؤسس الحظوظ الدنيوية علىٰ المقاصد الأخروية في قلوب المؤمنين! ففي سياق التشريع الأسري وفي إطار التنظيم الاجتماعي أورد الله تعالىٰ وصيته للمسلمين في شأن المحافظة علىٰ الصلاة؛ ربطًا للدنيا بالآخرة أبدًا! فقال تعالىٰ في سياق التشريع الأسري زواجًا وطلاقًا: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧-٢٤٢].

فانظر إلىٰ آية الصلاة كيف جاءت متفردة في سياق تَقدمَها بَسوابِقَ تشريعيةٍ اجتماعية وتَعقبها بِلواحقَ مثلها، آيات عددًا، كما هو في أصل السورة؛ وما ذلك

إلا ليجعل أمر الاجتماع البشري والنسيج العمراني لا يستقيم في الإسلام إلا ببنائه علىٰ العبادات المحضة، من ذكر الله وإقام الصلاة وسائر المغذيات للروح؛ صلةً بالله علىٰ كل حال!

وفي ظروف نزول القرآن التشريعي نزل قول الله تعالىٰ بالمدينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢]. وعند حضور المغانم وميل بعض الناس إليها قال تعالىٰ مبينًا أن ذلك من أسباب الهزيمة في غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «(مِنكمْ مَن يُريدُ الدنيا)، يعني: الغنيمة. قال ابن مسعود: «مَا شَعُرنَا أنَّ أحدًا من أصحابِ النبي ﷺ يريدُ الدُّنيا وعَرضهَا؛ حتىٰ كانَ يومُ أحُدٍ!»[1] وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (إنما عَنىٰ بهذا الرُّمَاةَ، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضعٍ ثم قال: «احْمُوا ظهورَنا! فإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تنصرونا! وإن رأيتمونا قد غَنِمنَا فلا تُشركُونَا!» فلما غَنِمَ رسول الله ﷺ وأباحوا عَسْكَرَ المشركين؛ انكشف الرُّماةُ جميعًا، فدخلوا في العسكر يَنتهِبُونَ..! (...) فلما أخلَّ الرماةُ تلك الْخَلَّةَ التي كانوا فيها؛ دخلَ الخيلُ من ذلك الموضع علىٰ أصحاب النبي ﷺ فضَربَ بعضهم بعضًا والتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناسٌ كثير!)[2].

وفي خاتمة سورة الفتح وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم قال تعالىٰ في توصيف أصحاب سيدنا محمد ﷺ ممن فازوا بمعيته التربوية بأنهم عمال الآخرة بالدرجة الأولىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٣٧.

(٢) رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه).

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]. والآيات والأحاديث من ذلك كثير، تكاد تشكل كل الآي القرآني، وجمع البيان النبوي؛ مما يثبت أن الخطاب الأخروي هو أساس الرسالة الإسلامية، وأن ما دونه من أمور البناء الدنيوي العمراني أمر مهم، ولكنه تابع لهذه الأصول ومُبْنَىٰ عليها!

إن تجديد الدين قائم أساسًا علىٰ تجديد علاقته بالناس؛ بإحياء التداول الإنساني للقرآن الكريم وحقائقه الإيمانية والخلقية. ولا يكون ذلك كله إلا بإحياء تربوي لعلوم الدين! إحيائها في النفوس البشرية، وإشاعة ما أصله أن يكون معلومًا منها بالضرورة، وبيان أحكام «مَا لا يَسَعُ المسلمَ جَهلُهُ» علىٰ حد تعبير الفقهاء. في زمن بلغ تجهيل الناس بالدين من الدركات أن يكون بعض العاملين له في الصف الإسلامي -مع الأسف- لا يحسن صلاته ولا وضوءه!

إن التداول الاجتماعي للقرآن علىٰ سبيل التربية والتزكية والتعلم، والتعليم لأحكامه وحِكَمِه كفيلٌ بالإحاطة بالرسالة الدعية علىٰ التمام. تلك هي الرسالة التجديدية التي وجب أن يحملها رجال الحركة الإسلامية ويطوفوا بها كل باب، من المدارس إلىٰ المتارس! ولو حُمِلَتْ علىٰ حقها لكانت تغني عن اتخاذ الأحزاب والألقاب في بلد كالمغرب خاصة! فأين هي الحركة الإسلامية المغربية من هذا؟ لقد أدخلت نفسها مع الأسف في جُحْرِ الضب! وسجنت كل إمكاناتها في قارورة الحزب السياسي، فحجرت علىٰ نفسها ما وسعه الله! وصارت تخاطب الناس ويخاطبونها علىٰ أنها حجرة من أحجار لعبة الشطرنج! أو رقم من أرقام الحسابات السياسية، التي يُستغنىٰ عنها متىٰ ما انتهت وظيفتها! إن الثقافة السياسية اليوم تقضي بأن الحزب السياسي ليس إلا لأهله! بينما الدعوة الإسلامية هي للجميع! فانظر أي خطيئة وَقَتْهَا الحركة عندما استبدلت الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير! فاختارت أن تطل علىٰ الناس من عين إبرة، وقد كانت من قبل تطل عليهم من عين الشمس!

إن ظروف المغرب وطبيعته المغايرة لكثير من بلدان العالم العربي والإسلامي لا تتحمل أبدًا وجود حركة إسلامية في ثوب حزب سياسي! ثم إن اتخاذ حزب سياسي للعمل الإسلامي مبدئيًا، إنما يصلح عندما تكون ظروف العمل الإسلامي -باعتباره منظومة دعوية تجديدية شاملة- غير ممكنة في البيئة أو متعذرة، وبشرط أن تكون إمكانات العمل السياسي غير مؤدية إلىٰ نتائج عكسية علىٰ مستوىٰ الدين والتدين. ولقد عُلِمَ في قواعد أصول الفقه أن «كل فرع عاد علىٰ أصله بالإبطال فهو باطل!»

ولقد كان بإمكان الحركة الإسلامية بالمغرب أن تصل إلىٰ أفضل النتائج السياسية -دون أن تتخذ لها حزبًا- لو أنها اشتغلت كقوة دينية دعوية، حاضرة برجالها وأفكارها في كل ميدان، منتشرة في كل قطاع. من المسجد إلىٰ العمل ثم إلىٰ الإدارة! ومن التعليم إلىٰ الإعلام ثم إلىٰ الاقتصاد. لقد كان بإمكانها أن تجعل بعض الأحزاب السياسية الأخرىٰ تنخرط في تطبيق الممكن من برامجها السياسية! دون أن تنزلق هي إلىٰ شَرَكِ الاستهلاك التجزيئي لقوتها! ولكن بعد زمن يمكنها من إنضاج تأثيرها السياسي غير المباشر في الهيئات والمؤسسات. لكنَّ عُقدتَها كامنة في أنها تنظر في عملها إلىٰ الممكن وغير الممكن في اللحظة الآنية فقط، وتلك هي مشكلتها. إن ما ليس بممكن اليوم قد يكون ممكنًا غدًا، إذا قدمنا شروطه العملية عند الانطلاق، وسرنا في الاتجاه الصحيح. لقد كان بإمكان الحركة الإسلامية أن تكون ما أرادت لو أنها أرادت وجه الله حقيقة ولم تستعجل أمرها. إن سر الخطأ لديها أنها استثمرت كل طاقتها في الهياكل والأشكال دون أن تستثمرها في الإنسان!

لقد كانت تجربة العمل السياسي للعمل الإسلامي بالمغرب فاشلة بكل المقاييس الشرعية والسياسية! بسبب أن الإسلاميين حاولوا قطف ثمرة لم يئن إبانُ قطافها، فتجرعوا مرارة فاكهة لم تنضج بعد!

فكانت النتيجة خسارة للإسلامين تجلت مظاهرها في المجالات التالية:

- علىٰ مستوىٰ الفهم التصوري للدين:

رسخت صورة العمل الإسلامي غير المتوازنة في أذهان كثير من الإسلاميين، وتضخم التصور السياسي للدين! وضمر موقع العبادات من مساجد وصلوات!

وصرت تسمع اتهام هذا المتكلم أو ذاك من الدعاة والعاملين للإسلام بأنه صاحب «خطاب وعظي!» أو أنه «غارق في الفقهيات!» بل إن منهم من كان يدعو إلىٰ ترك الأحكام الفقهية للمساجد، وأن الساحة إنما هي خالصة للخطاب السياسي والتحليل السوسيولوجي..! كذا، يا ويلهم! كيف والقضية التي من أجلها نشأ كل هذا الضجيج والعجيج إنما هي الدين! وما الدين إنْ لم يكن نظرًا إلىٰ المآلات الأخروية واشتغالًا بالأعمال التعبدية! لقد ضَلَّلَتْ بعضُ المقولات كثيرًا من أهل الشأن الإسلامي زمنًا ليس باليسير! كمقولة «شمولية العبادة» التي هي حق أريد به في بعض الأحيان باطل! ذلك أنها وظفت في بعض السياقات لإقامة دعاوىٰ خاطئة! وإنما قيلت أصلًا لتنبيه الغافلين من الزهاد والمنزوين من العُبَّادِ إلىٰ أن الانخراط في هموم المسلمين، والانغماس في شأنهم العام ضرب من العبادة أيضًا. ولكن بالتبع لا بالأصالة، وبالدرجة الثانية لا بالدرجة الأولىٰ. وإلا فلا بركة في حركة تثير النقع في وغىٰ السياسات، وتشعل الخطب النارية في نوادي النقابات، وأصحابها لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ! كيف وها **(أَوَّل ما يُحَاسَبُ بِهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصلاة، فإنْ صَلحَتْ صَلحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وإِنْ فسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ)**[1]!؟ وما تحديد أركان الإسلام الخمسة وحصرها في «الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج»، إلا لتكون أصلًا، ويكون ما سواها لها تبعًا! لكن الانجراف وراء الرغبات السياسية جعل الفروع أصولًا؛ فقلب الموازين! ثم انصرف كثير من أبناء الحركة الإسلامية إلىٰ ما يشتهون؛ بدعوىٰ أن «السياسة عبادة!» فما نجحوا في السياسة ولا صدقوا في العبادة؛ فخسروهما معًا! والله المستعان!

- علىٰ المستوىٰ التربوي والدعوي:

انهار العمل التربوي والدعوي بصورة رهيبة، وضعفت مقاصد التعبد لدىٰ أبنائه؛ بسبب بروز المغانم السياسية وتطلع ضعيفي الإيمان منهم إلىٰ إغراءاتها المادية، ثم بسبب حماسه العمل السياسي وسرعته، وثقل العمل التربوي علىٰ النفس بما يحمل من مغارم وتكاليف، وما يتطلب من إعداد روحي، ومجهادة

(١) رواه الطيالسي، والضياء، عن أنس. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

للنفس قبل مجهادة الغير: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. وظهر المتسلقون والانتهازيون في الصف الإسلامي أيضًا، ووصل بعضهم إلىٰ مواقع الصدارة فعلًا. فبدأ العمل التربوي يتلاشىٰ، وينهار شيئًا فشيئًا -وهو صمام الأمان للمشروع كله- حتىٰ انهارت الحركة تمامًا! وأخلت مكانها لصالح الحزب السياسي، وإن بقيت هياكلها الشكلية قائمة، لكنها -مع الأسف الشديد- أشباح بلا أرواح! وخسر العمل الإسلامي موقعه في مواطنه الأصلية، وعلىٰ رأسها المدارس والثانويات ثم الجامعات! لقد كانت الدعوة تشتغل من قبل بالتربية والتكوين في صفوف التلاميذ، فكانت تضمن بذلك تنامي الدين والتدين في الأجيال المتعاقبة. لكنها ما أن فُتِنَتْ بالصنم السياسي حتىٰ انسحبت من مواقعها الجهادية وتركت المجال لغول «الفجور السياسي» يعيث في الأرض فسادًا، ويُخرجُ من التلاميذ والطلبة أجيالًا تكره الدين وتلعن الوطن! وتقدس أنصاب ناطحات السحاب! ثم تلقي بأنفسها منتحرة عبر قوارب الموت في غضب البحار!

فأصيبت الحركة الإسلامية في أبنائها بِما وُجدتْ أصلًا لمحاربته في غيرها! وتلك هي الطامة الكبرىٰ حقًا! انساق الشباب -ذُكرانًا وإناثًا- وراء الأهواء، ومقولات الإغواء، وانخرطوا في مضايق الجدل؛ هروبًا من خنادق العمل. ثم حُرموا جمال الدين ورونقه: ألا وهو الخلقُ والحياء..! فصارت الفظاظة وسوء الأدب -مع الأسف- هي سيماء الخطاب لكثير من العاملين -زعموا- في الصف الإسلامي واحسرتاه! ولاَنَ دِينُ كثيرٍ منهم -إلا من رحم الله- حتىٰ شَفَّ عما تحته من ضعف وانحراف، تمامًا كما شَفَّ لباسُ كثيرٍ من «المحجبات» عما تحته من فتنة وغواية! فأي بديل يقدم هذا العمل للناس؟

- علىٰ مستوىٰ الأمانة الأخلاقية:

كانت الأخلاق هي الضحية الأولىٰ التي ذُبحت عند قدمي الصنم السياسي! وبات الرهان خاسرًا! فبدل أن (يُخلِّقَ) الإسلاميون الحياة السياسية -كما زعموا- تدنسوا بأوساخها! بسبب أن الموازين التي اشتغلوا بها في تقدير طبيعة الزمان والمكان كانت خاطئة! وبسبب أن الأولويات التي نادوا بها -عند اتخاذ الحزب- كانت علىٰ غير أولويات الدين! فماذا بقي للإسلاميين من الدين إن هم فقدوا

أخلاقهم؟ يا ويلهم! كيف وها الدين كل الدين إنما هو منظومة من الأخلاق!؟

أين تضع الحركة الإسلامية برامجها -بعد هذا- من قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ!**»(١)؟ وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**لاَ تَحَاسَدُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ولا يَبِعْ بَعضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ! وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَا هُنَا! وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ! إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجسادِكُمْ ولا إِلىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصابعهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ**»(٢). وعَنْ عبد اللَّهِ بْنِ عَمْرو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**)(٣) وعَنْ عبد اللَّه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَال رسول اللهِ ﷺ: (**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا**»(٤).

لقد جعلت التجربة السياسة بعضهم يناور ضد إخوانه في الحركة، وينشئ الجيوب والأحلاف؛ ليكون علىٰ رأس لائحة الترشيحات البلدية أو البرلمانية! ومنهم من فَجَرَ وبَجَر هائجًا من الغضب لما أُقْصِيَ من الاقتراح الانتخابي! ومنهم من وصل عبر السلم الخلفي إلىٰ رأس اللائحة، كما يصل اللص عبر السراديب المظلمة إلىٰ مكان المجوهرات! ويركل برجله ساخرًا كلمات البيان النبوي الصريح: «**إِنَّا وَاللَّهِ لا نُوَلِّي عَلَىٰ هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ولا أَحَدًا حَرَصَ**

(١) رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

عَلَيْهِ!»[1]. ثم يزعم علينا في نهاية المطاف أنه يمثل صوت الإسلام في «البلدية» أو في «البرلمان»! وبغير استحياء يرفع شعار دين أنزله من ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وبرزت أنصاب الكراسي من بعيد؛ فانجرفت شبيبة الحركة الإسلامية نحو الحزب السياسي انجرافًا! ففرغت «الحركة» من رجالها، وصارت أطلالًا شاحبة تبكي الزمان الذي كان! فأشبهتْ حَالها أمارةً من أمارات الساعة، الواردة في حديث جبريل: (**وأَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا!**) والحركةُ وَلَدتْ حِزبها، فأرضعته من خالص لبنها، حتىٰ إذا بلغ أَشدهُ حَكَمَهَا، ثم ابتلعها! وباتت المواقع الدعوية في البلاد أفْرَغَ من فؤاد أم موسىٰ! وأتاحت للشيطان بذلك أن يركض بحوافره النجسة في كل مكان، وانطلق غول الفجور السياسي من عقاله يخرب البلاد ويهتك الأعراض! فكان دين الشبيبة الإسلامية هو أول ما تعرض للفساد!

لقد انحطت الأخلاق العامة للإسلاميين انحطاطًا بليغًا، وعلىٰ رأس ذلك خُلُقُ الحياء، في الرجال والنساء علىٰ السواء! كانت الفتاة المؤمنة -في مرحلة التربية للحركة الإسلامية- لا تكاد ترفع بصرها إلىٰ الشاب حتىٰ يخفضه حياؤها الصادقُ ويرده إلىٰ الأرض! (والحياءُ من الإيمان)[2] و(الحياء خَيْرٌ كلُّه!)[3] ثم ترىٰ الرجل علىٰ الرصيف فتنحرف عنه إلىٰ الرصيف الآخر؛ تحاشيًا لفتنة قد تقع منها أو عليها! للهِ دَرُّهَا! كيف كانت تمشي بوقار، مُتَعبدةً بلباسها الساتر الوافي. متنزهة عن الألوان الصارخة والأشكال الفاضحة، لا تغنج في صوتها ولا تصنع. تنآىٰ بشرفها عن الشُّبه والشبهات. وتجاهد نفسها لتحصيل منازل التقوىٰ والورع؛ فبارك الله في حركتها وفي سعيها. وكذلك كان أخوها.

أما اليوم، فقد نبت جيل مشوه من هذا المسمىٰ بـ «الأخوات»!.. مُحجباتٌ تبرجنَ بـ «حِجابهنَّ» أشد من تَبرجِ السافرات بعريهن! وإذا خاطبن الشباب سَمرنَ فيهم أعينًا خائنات! وتصنعن في أصواتهن أنغامًا زائدة، وحروفًا باردة! ولقد

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

(٣) رواه مسلم مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

عجبت كيف صار أغلبهن في هذا الزمان لا ينطق «الراء» إلا بما تقتضيه قواعد التجويد والترتيل! كأن بألسنتهن علة! وما باللسان من علة، ولكنَّ القلب هو العليل! تقترب منك إحداهن لحاجة فتكاد تدهسك بصدرها! يا ويلها! وأذكر أنني انتقدتُ يومًا هذا الانتكاس الخلقي في لباس الأخوات بلقاء دعوىٰ، داخل أحد مقرات الحركة -وكان تيار الفجور السياسي العام في أول عهده آنئذ- فردت عليَّ إحدىٰ «الزعيمات» -وهي «الأستاذةُ» يا حسرةً- عندما ذكرتُ بأن ذلك علامة علىٰ اختلال تربوي، فَرَفعتْ نحوي وجهًا يكاد يسيل من الطلاء والدهون، وقالت بما يشبه الانتهار: (أو قل: إنهن تَقَدمنَ!) ثم رجعتُ أندب مصير التدين في التنظيم الإسلامي! فيا لتقدُّمٍ انطلق من فقه (الانحلال) ولم يقف حتىٰ مَرَّغَ الأعراض في التراب!

فبأي وجه تخاطب الحركة الإسلامية الناس اليوم إذا هي كذبت في خطابها كما يكذب السياسيون، وفجرت في خصامها كما يفجر النقابيون؟ ثم انحلت في أخلاقها كما ينحل الشهوانيون؟

الفصل الثاني
استصنام الخيار النقابي

دخلت الحركة الإسلامية التجربة النقابية بلا تَرَوٍّ، ولا تأصيل. فقامرت برصيدها الأخلاقي والديني؛ بخوض غمار عمل ما يزال مشبعًا بلغة الصراع الطبقي، والمقولات الماركسية في الفكر الاقتصادي، والنظريات الاشتراكية في قضايا العمل والعمال، ومشكلات الرأسمال. فشاركت في إدارة «ميكانيزم» سياسي بالدرجة الأولىٰ، متأثر بديكتاتورية «البروليتاريا»، وفكرة نزع الملكية الخاصة، وتجريم الغني أنىٰ كان مصدر غناه! فاشتغلت -بصورة لا شعورية- بعيدًا عن منطق الإسلام، القائم علىٰ بناء عقود العمل علىٰ المبدأ الإسلامي الكلي العظيم: (لاَ ضَرَرَ ولا ضِرَار). وتورطت في التلوث ببقايا النظريات الماركسية القائمة علىٰ تطبيع نفسيات العمال علىٰ الحقد والكراهية والغش، بدل خلاق التعاون والمشاركة والنصح. ومارست ما يسمىٰ بـ «حق الإضراب»[1] دون تفقه في نوازله، ولا تأصيل لأحكامه، وإنما اعتمادًا علىٰ منشورات إنشائية ضعيفة القيمة العلمية، صدرت عن بعض الكتاب ممن لا علاقة لهم بالبحث العلمي المتخصص في الدراسات الفقهية والأصولية.

---

(١) لا ينبغي أن يُفهم من هذا أننا ضد حق الإضراب مطلقًا، ولكننا ضد التوظيف السياسي لمعاركه؛ بما يُلحق الضرر بمصالح العمال من جهة؛ ويلحق الظلم والضرر بأرباب العمل والإدارات المشرفة علىٰ المصالح العامة من جهة أخرىٰ؛ مما ينتج عنه خراب عام وفساد بالبلاد والعباد.

وهكذا تورطت الحركات الإسلامية في تأجيج إضرابات عن العمل -علىٰ طريقة التنظيمات الماركسية والأحزاب الانتهازية- للضغط السياسي علىٰ إدارات معينة؛ من أجل تمرير ملفات أخرىٰ، لا علاقة لها بمصالح العمل والعمال، لا من قريب ولا من بعيد! فأسهمت بذلك -من حيث تدري أو لا تدري- في تربية أبناء الحركة علىٰ الكذب والخداع، وسوء الأخلاق في المناظرة والحوار. وما كان ينبغي أن نسابق اليسار نحو الهاوية! وكُلٌّ ينفق مما عنده.

هذا، ولقد كان للوليد النقابي -غير الشرعي- في صفوف الطلبة خاصة؛ أكبر الأثر في تدمير البنية الخلقية لشباب الإسلاميين بالجامعة، ثم امتد الخراب إلىٰ ما سواها من أجنحة العمل الإسلامي العام! ونظرًا لخطورته، ولما سببه من تدمير مفهومي وتخريب خلقي، لبنية العمل الدعوي والتربوي لدىٰ أغلب التنظيمات الإسلامية البارزة علىٰ الساحة المغربية؛ فإننا نعقد له مبحثًا خاصًا. وهو كما يلي:

الصنم «الأوطمي» وانهيار الأخلاق في الصف الإسلامي

إنني أشهد -كمراقب للمرحلة ومشارك فيها- أن العمل النقابي الطلابي في التجربة الإسلامية، الذي ولد في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات -من القرن العشرين- إنما هو طفل لقيط! ولذلك فإن عقاربه قد اخضرتْ حتىٰ كادت تَسودُّ بما احتقن في جسمها من سموم! وبيان ذلك هو كما يلي:

دخلت الحركة الطلابية الإسلامية مَعْبَدَ «أُوطِم». تلك المنظمة النقابية التي تكوَّنَ داخل أحشائها -مِنْ قَبلُ- المَدُّ الماركسي الإلحادي بالمغرب، فانتصب رموزه وصيةً علىٰ الجامعة المغربية لسنوات ليست بالقليلة! فأسست لغتُه ثقافةَ النضالِ الطلابي ورموزَه، وانشأت مرجعيته وقوانينه، ثم صَنعتْ أجهزتَه المفاهيمية. وصار ما أصدرته مؤتمراتُ «أوطم» في مرحلتها اليسارية، من قرارات وشعارات؛ هو الفيصل في كل خلاف فصائلي، والمرجع في كل جدل كلامي. ثم ورثت الفصائل الطلابية الإسلامية المنهجيةَ المادية التي خلفها الفكر الماركسي المتطرف، واشتغلت بترسانتها المصطلحية وجهازها المفهومي بحماس يؤسسه الجهل العلمي بالدين، والهوىٰ الانتمائي الحزبي! وهكذا وُلدتْ الحركةُ الطلابية

«الإسلامية» لأم متدينة وأب ماركسي لينيني! فكانت نتاجًا غير شرعي لأسوأ زواج عرفه التاريخ! ولذلك انطلقتْ تُبَغِّلُ في مشيتها تَبغيلًا! وانخرطت في معارك ضد العلم وضد الأخلاق! فخسرت مصداقيتها عند الطلبة، والأساتذة والإدارة الجامعية، والناس أجمعين! وكان الإسلام بالجامعة المغربية -من حيث هو قيم وأخلاق- هو الضحية الأولىٰ لذلك الخطاب الفج والسلوك الفظ الذي مارسته فصائُلها! لقد عِشْتُ المرحلة الماركسية بالجامعة المغربية طالبًا، ثم عشت المرحلة «الإسلامية» مدرسًا، فلم أر من الفروق المنهجية بين المرحلتين سوىٰ بدء الخطابات بعبارة: «بسم الله قاصم الجبارين!» ثم ينطلق الخطاب بعد ذلك يرهب بجبورته الطاغوتي أفئدة الطلبة المستضعفين! ويقصم المجهود العلمي للأساتذة والباحثين! علىٰ غرار ما عشناه في المرحلة الماركسية سواء!

وقد كان «فصيل العدل والإحسان» أول من بادر بالإعلان الرسمي عن نفسه كفصيل «إسلامي» بالجامعة المغربية؛ فكان -مع الأسف- أكثر حظًا من غيره في التدنس بالتراث الماركسي اللينيني، في الخطاب والممارسة علىٰ المستوىٰ النقابي!

ساعده في ذلك خلفيتُه الإيديولوجية المؤسسةُ لجماعة «العدل والإحسان»، التي ما فتئت تعني -منذ نشوئها- عقدة النظام السياسي؛ بسبب مرض «التضخم السياسي» التصوري والمنهجي، الذي هيمن علىٰ فكر مؤسس الجماعة الأستاذ عبد السلام ياسين، كما بيناه مفصلًا بأدلته في كتاب سابق(١). فانطلق الفصيل بذلك يستعرض مقولاتها السياسية في الساحة الجامعية، بصورة جعلته أكثر تعبيرًا

(١) يمكنك مطالعة دراستنا لقضية «التضخم السياسي» في الفكر الإسلامي، في كتابنا المذكور من قبل: (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي). وقد أهداني أحد طلابنا -مشكورًا- كتابًا لبعض «الياسينيين» يرد فيه علىٰ (البيان الدعوي)، لكننا لم نجد فيه -مع الأسف- من العلم إلا أشكاله؛ لما يعانيه صاحبه من التعصب الحربي، والهوىٰ الانتمائي، والتشنج في المناقشة والحوار؛ ما حجبه عن الدراسة العلمية الهادئة لأطروحة (التضخم السياسي). ولعله لم يفهم أصلًا بعض ما قصدنا إليه. وأحسب أن الأمر في هذه المسألة أمر هداية -هدانا الله وإياه- لأن الأطروحة التي عرضناها في الكتاب المذكور إنما هي من قواطع الكليات الدينية، وليس لنا فيها من الجهد إلا الجمع والترتيب، كالذي يبين معلومًا عن الدين بالضرورة. وإنما الموفق من وفقه الله.

عن نشاطها من باقي أجنحتها. بل لقد أتىٰ عليه حين من الدهر كاد أن يكون هو القاطرة التي تجر الجماعة بأسرها! لقد تضخم فصيل «العدل والإحسان» بالنسبة لجماعته، كما تضخم حزب «العدالة والتنمية» بالنسبة لحركته، حيث كاد الفرع أن يصير أصلًا.

لقد دخل هذا الفصيل المنظمة النقابية «أوطم» -أي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب- يقوده العمىٰ العلمي، والهوىٰ الانتمائي! ورفض مقولة التأصيل النقابي للمنظمة، مما نادينا به، وليس كل أحلاسها بلا استثناء، كما أشهد علىٰ ذلك مرارًا من خلال محاورات رسمية مع بعض مسؤولية علىٰ المستوىٰ المركزي! مُصِرًّا علىٰ الاشتغال بالموجود -رغم فساد أدواته- إلىٰ حين! بسبب أن القوانين «الأوطمية» في فظاظتها الماركسية كانت تناسب العنف النفسي الذي يلبي الرغبات التنظيمية في تحطيم كل شيء! وانطلق الفصيل «الياسيني» في الجامعة المغربية مثل ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]! مشتغلًا بالأسلوب الماركسي في النضال الطلابي؛ فبرَّزَ في سوء الأدب، وتفنن في خرق الحياء! وأعطىٰ النموذج المثالي بسلوكه الفج عن انحطاط الأخلاق! مارس «العنف الثوري»، تحت تأثير مصطلح «القومة» التي لم «تقم» إلا علىٰ بقية الدين في رموزه ورواده! ومارس -مثل سلفه الماركسي- أسلوب تفريغ القاعات الدراسية، والمدرجات العامرة من الطلبة والأساتذة بطريقة بدائية، لا أدب فيها ولا ذوق! واحترف الكذب والخداع للجماهير الطلابية، بالزج بها في معارك وهمية! والخروج عليها ببيانات تضليلية؛ خدمة لمصالح حزبية ضيقة تهم الجماعة الياسينية في الخارج أساسًا، ولا علاقة لها بالجامعة ولا بالهم الطلابي!

ثم مارس «دكتاتورية البروليتاريا» باسم «حكومة» التعاضديات! فعجبًا لو وصل لقيادة الدولة باسم حكومة «الخلافة» ماذا كانوا يصنعون! وتفنن في الشتم والسباب، حتىٰ كد أن يصنع لنفسه في ذلك قاموسًا خاصًا! وما كان ذلك «منهاجًا نبويًا» ولا أسلوبًا لإنتاج الخير قط، لو كانوا يعلمون! وتَطبعَ -كسلفه اليساري- بنفسية الصراع المرضية، وردود الأفعال المتشنجة، فلا ترىٰ منه إلا وجوهًا عبوسة بئيسة! وأحوالاً مَرضيةً تستحق الإشفاق! لا تكاد تحاور أحد رموزه

حتىٰ ينفجر بالشرارات، ويبوء بأسوأ العبارات! مارس الانتهازية السياسية؛ باستغلال رموز دولية كشيخ «حماس» أحمد ياسين، تقبله الله في الشهداء، واستغلال المظالم الدولية التي تهم كل المسلمين؛ ليستثمرها لحسابه الخاص، غير آبه بما تقتضيه مصلحة الأمة في المسألة، ولا حاجتها الحقيقية! عاش في أغلب رموزه جهلًا فظيعًا بالدين، وضرب المثال بهم في التخلف الدراسي، وتفوق في التأصيل لصناعة الغش في الامتحانات! وكان أول فصيل إسلامي يبوء بإثم المنع الهمجي للأساتذة المحاضرين والدعاة الإسلاميين من الكلام! وممارسة حقهم الشرعي في التربية والتوجيه؛ لا لسبب إلا لكونهم ذوي انتماءات تنظيمية أخرىٰ! وإن كنتُ أنسىٰ فلا أنسىٰ أبدًا ما وقع للأستاذ الداعية الحجة أبي زيد المقرئ الإدريسي في جامعة الدار البيضاء، ثم ما وقع للأستاذ المجاهد المصطفىٰ الرميد في جامعة تطوان، من إقصاء إرهابي، ومنع تعسفي من المشاركة في نشاط لم يكن طلبة (العدل والإحسان) هم الذين أقاموه! وقد عشت -وأنا من المشرفين علىٰ العمل الطلابي ساعتها- مأساة تحطيم اللوحات الإسلامية تمزيق اللافتات الإيمانية، بأيدي «الياسينيين»، بجامعة عبد المالك السعدي، وبجامعة الحسن الثاني؛ تحت ذريعة حماية قوانين «أوطمية» جاهلية، ما أنزل الله بها من سلطان! يبررون بها فعلهم يا ويلهم! فيدخلون بذلك تحت سياط قول الله جل علاه: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ **[الحشر: ٢]**. كذلك، والله المستعان!

وما رأيت -في الإسلاميين- أقلَّ حياءً من طالباته وطلابه، ولا دوسًا لأحكام الشريعة من رواده! يرفعون أصواتهم باسم الدين تصفيقًا وتصديةً في السماء، في حِلقٍ وتظاهرات تعجن الفتيان بالفتيات، وتهتك حجاب الحياء! ثم يدَّعون أنهم يعبدون الله تعالىٰ بمثل هذا السفه؟ عَجَبًا! كيف؟ ونصوص الشريعة تدينهم صباح مساء! من مثل قول النبي ﷺ: **(إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)**[1]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ

(١) رواه البخاري.

الحياءَ والإيمانَ قُرِنَا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفِعَ الآخرُ!)[1] ثم عن أنس وابن عباس كليهما أن النبي ﷺ قال: (**إنَّ لكل دينٍ خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ!**)[2].

ولو كان هؤلاء يتلون القرآن حَقَّ تلاوته؛ لكانوا يشاهدون المقامَ الإيماني العالي للفتاتين المؤمنتين في قصة موسىٰ عليه السلام! ولَلَاحَظُوا كيف تراجعتا إلىٰ الخلف؛ حفظًا لشفرهما، وصونًا لِحشمتهمَا، ومنعًا لكرامتهما من زحام الرعاءِ والرَّعَاع! ولشهدوا كيف جاءت إحداهما إلىٰ موسىٰ تمشي علىٰ استحياء! لا علىٰ صَلَفٍ وكبرياء! ولا بـ «نضال» تدوس حَوافِرهُ وأظلافُه كلَّ قيم الخير والحياء! قال الله جلَّ عُلاه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ . . . . [**القصص: ٢٣-٢٥**]. فيَا لَهُ من كمالٍ! ويَا لَهُ من جمال! . . . فعجبًا! كيف لم يشاهد هؤلاء ذلك وهم -كما زعموا- أصحابُ (المشاهدات)؟!

ثم إنهم لو كانوا يعرفون سنة النبي ﷺ ومنهاجه النبوي الحق لوجدوه عليه الصلاة والسلام يؤسس قيم الأخلاق في المسجد؛ بفصل صفوف النساء عن الرجال، ويقول لأصحابه: (**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا**)[3]، لقد كان ذلك الترتيب النبوي في بيت الله، لِمَا أعلمه الله من أن أحدهم كان يصلي في الصف الأخير؛ فينظر -من خلال ركوعه وسجوده- إلىٰ امرأة جميلة، كانت تصلي في الصف الأول من النساء! فكان الأمر النبوي للرجال بالابتعاد عن صفوف النساء! وهم في بيت العبادة، وحال التقرب إلىٰ الله! فما بالك بتجمعات اقتضتها عاداتٌ ليس فيها من

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه ابن ماجه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه مسلم.

روح العبادة نصيب؟ ولست أدري علىٰ أيِّ تَوراةٍ أم علىٰ أيِّ زَبورٍ اعتمد هؤلاء لعجن الفتيات بالفتيان، في مسيرات السَّفَهِ والبهتان!

فالله الله علىٰ انهيار قيم الدين بأيدي من يُفترضُ فيهم حفظ «عدله وإحسانه»! لقد تحطمت قَواريرُ الأخلاق علىٰ صخور تقليد «الرفاق»!

فماذا بقي بعد ذلك لهؤلاء؟

لم ينفعهم تصوف الجماعة المزعوم في التربية والسلوك؛ لسبب بسيط، هو أن التعبد لله الواحد القهار، لا بد فيه من إتباع سنة النبي المختار، بَيْدَ أنَّ الأطروحة الياسينية انحرفت عن ذلك جميعًا، وغالت في توجهها الخرافي بصورة ما كنا نتوقعها في زمن سابق قط! وليس عبثًا أن يُجمع العلماء علىٰ أن العبادة لله تعالىٰ لا تصح حتىٰ تجمع بين وصفين: أن تكون خالصة لله في القصد، وموافقة للشرع في الصواب. وكل ذلك انخرم في التصوف الياسيني؛ فقد أضاع الإخلاصَ ببروز الشخصانية في القيادات والشعارات! وأضاع الصوابَ بسبب الجهل بالشريعة وأحكامها في العبادات والمعاملات. وكل عمل خلا من أحد الوصفين فهو باطل! وقد تقرر في القاعدة الفقهية: أن «ما انبنىٰ علىٰ باطل فهو باطل!» تأصيلًا لكل ذلك فيما تواتر -معنويًا- من حديث رسول الله ﷺ: **(مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ)**[١]، و**(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)**[٢]. ومن هنا ارتفعت البركة عن أعمالهم، وسُحِبَت الربانية عن نضالاتهم! فلا نضارة ولا رواء! فَتَنزَّلَ عليهم إبليس بالرؤىٰ الاستدراجية، والمشاهدات الشيطانية؛ حتىٰ ظنوا أن العصمة قد حلت فيهم! وأن الخلافة قد صارت إليهم! وما هو إلا تدليسٌ وتلبيس، ووهمٌ خسيس!

وقد مر في التاريخ من هم أفضل منهم قيامًا وصيامًا، وأكثر منهم تلاوة للقرآن وإحسانًا، ثم قضىٰ الله تعالىٰ بِكبْكَبَتِهِمْ في النار! وإنما كانوا يطالبون مثلهم بـ (العدل والإحسان)! كما تصوروهما، لا كما هما في شرع الله ودينه الحق! وبذلك خرجوا عن أهل السنة والجماعة. وما حديث رسول الله ﷺ في ذلك عنا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

ببعيد. فعن أبي سَعيد الخدريَّ رضي الله عنه قال: (**سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ -وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا- قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أو حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ! فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَىٰ سَهْمِهِ، إِلَىٰ نَصْلِهِ، إِلَىٰ رِصَافِهِ، فَيَتَمَارَىٰ فِي الفُوقَةِ، هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ؟!**)[1]. ومثله حديثُ عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: (**سَمِعْتُ رسول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البريةِ، يَقرؤُونَ القرآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ. من الدِّينِ كَمَا يَمرقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ! ...**) الحديث[2].

وما هي إلا سنوات قلائل حتىٰ أصبحت الجامعة المغربية أطلالًا خاوية علىٰ عروشها من كل قيم الخير والجمال! وصار رد الفعل الخطير علىٰ ذلك السلوك المتشنج الذي مارسه «الياسينيون» وغيرهم، هو انطلاق موجه الفجور السياسي، والانحلال الخلقي؛ نتيجة عكسية لعدة سنوات من الإرهاب الطلابي الذي مورس باسم الدين! فكان الخاسر الحقيقي في تلك المعركة إنما هو الدين نفسه! فتحطمت الفضائل الإسلامية كلها في الجامعة المغربية، ولم يبق منها إلا مِزَقٌ من قطع غيار بالية! ترتطم صفائحها الصدئة بين الفينة والأخرىٰ، فتصدر أصواتًا متحشرجة بهذه الجامعة أو تلك، وهي تعيش لحظات الاحتضار! وخرج الفصيل «الياسيني» من الجامعة المغربية بتاريخ شقي وسجل أسود!

وكنا نرجو ألا يقع «فصيل الوحدة والتواصل» -الذي تطور فيما بعدُ إلىٰ مُسَمَّىٰ «منظمة التجديد الطلابي»- فيما وقع فيه زميله «الياسيني» من مزالق ومهالك، ويقف بجرأة وقفة مراجعة للتراث «الأوطمي»، قبل التدنس بحممه السوداء، ولكنه -مع الأسف- انساق كصاحبه وراء البريق الشيطاني الذي استدرج العمل الإسلامي عن وظيفته الحقيقية، وجَرَّهُ إلىٰ سَفَهِ المهاترات الكلامية؛ فابتُلي هو

---

(١) متفق عليه. الرَّمِيةُ: هو الصيد المرمي، والرِّصافُ: مدخل النصل من السهم. وقوله: «يتمارىٰ» أي يتشكك هل بقي من الدم شيء؟ والفُوقَةُ: موضع الوتر من السهم. وقد شبه سرعة مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه بقوة وسرعة شديدتين! حتىٰ إنه لا يعلق بالسهم من جسد الصيد ودمه شيءٌ!

(٢) متفق عليه.

أيضًا بكل ما ذكرنا عن الفصيل الأول من أدواء وأهواء، لكن بدرجة أقل. لقد صارت «منظمة التجديد الطلابي» -علىٰ وِزَانِ الحزب السياسي سواء -تجليًّا من تجليات «المطيعية» مع الأسف![1] رغم ما كان يعتري مبادراتها من محاولات تصحيحة -من حين لآخر- لكنها لا تستمر إلا قليلًا حتىٰ تعود حليمة إلىٰ عادتها القديمة! وظل التصحيح حبيس الأوراق والملصقات الملونة!

ولقد شاهدت بنفسي سنة: ٢٠٠٠م، كيف كان الكذب الصراح والبهتان القراح أساس خطابات طلابية في مؤتمرات داخلية، باء بها بعض رواد فصيل الوحدة والتواصل؛ من أجل احتكار مناصب قيادية داخل الصف الطلابي؛ لصالح تيار ضد تيار، في نفس الجماعة الواحدة! وعلا العجيج والضجيج، واشتبكت الأصوات الفاجرة وأزبدت! فشاهدت بعيني المصداقية الدينية تحترق في وجوه بعضهم؛ حتىٰ صار دخان الخيانة يزكم أنفي! فقلت في نفسي أهذا جمع (تتنزل عليه الرحمة، وتغشاه السكينة، وتحفه الملائكة، ويذكره الله فيمن عنده)؟ أم أنه جَمعٌ للكذبةِ والشياطين؟ فضاق صدري وانعقد لساني، ثم انصرفت عن القوم كاسف البال غير آسف؛ إلا علىٰ عُمُرٍ ضاع مني في تيهٍ، خارج أولويات الدين!

وهكذا صار العمل الطلابي «الإسلامي» -بكل فصائله- ضليعًا في تخريج المتكلمين الجدليين، عاجزًا عن تخريج العاملين الرساليين! وكان أولىٰ به أن يشتغل بما ينفعه في دينه حقًا، وينفع الأمة في مستقبلها صدقًا. كان حريًا به أن يشتغل بتداول نصوص القرآن الكريم، تلاوةً وتدارسًا، والتفقه في الضروري من سنة سيد المرسلين، لامتلاك الحد الأدنىٰ من الثقافة الدينية الضرورية للدعاة العاملين. ثم الانخراط في العمل الدعوي بين عموم الطلبة والطالبات، ومحاربة الفجور السياسي، والانهيار الأخلاقي، وبث الوعي بخطورة الكيد الإيديولوجي والتضليل الإعلامي ...إلخ. كان المفروض في القطاع الطلابي أن يكون أكثر نشاطًا في المجال التربوي، وأكثر فاعلية في مجال دعوة الشباب إلىٰ الصلاح،

---

(١) «المطيعية»: هي صفة منهجية تعتمد أسلوب المناورة والخداع في التعاطي للشأن الإسلامي الحركي؛ نسبة إلىٰ الأستاذ عبد الكريم مُطِيع، مؤسس حركة الشبيبة الإسلامية المغربية، كما سيأتي شرحه مفصلًا في الفصل الخامس بحول الله.

وتحمل الهم الرسالي لهذا الدين. ثم كان المفروض -قبل هذا وذاك- أن يهتم بالمدارس الثانوية ليهيئ الخلفَ من الراشدين؛ لحمل رسالة الجامعات والمعاهد الطلابية؛ حتىٰ لا ينقطع السير في درب العمل الدعوي بالجامعة أبدًا. كما كان المفروض أن يهتم بمدارس الأطر العليا، والنخبة المعدة لحمل الشهادات المتخصصة، في مجال الدراسات الإعلامية، والقانونية، والاقتصادية، والرياضية، والفزيائية، والهندسية بشتىٰ فروعها، وألا يزج بأمثال هؤلاء في متاهات (قيلَ وقالَ وكثرةِ السؤال)، وإنما يصنع منهم أطرًا تحمل إيمانًا عاليًا بالله واليوم الآخر، وتصدق في خدمة الدين والوطن، فمستقبل البلاد دائمًا رهين توجه النخبة التكنوقراطية والمثقفة، لو كانوا يفقهون!

ولكن تهاوىٰ العمل الإسلامي الأصيل في الجامعة، ذلك الصرح الأول الذي بنته -علىٰ قِلَّةٍ- الأجيالُ الطلابية الأولىٰ، طيلةَ السبعينات وأواسط الثمانينات من القرن الماضي، بلا نَقابةٍ ولا رَبابةٍ! وإنما بمجالس تربوية إيمانية بانية، وبإصرارٍ عجيب علىٰ القراءة المعمقة، والتضلع بالصناعة العلمية الراشدة، في كل التخصصات، الدينية والإنسانية والطبيعية! وهي آنئذٍ تدافع ظلم التيارات الماركسية وظلماتها! والماركسيةُ ساعتها في أوج عنفوانها! وبذلك أنشأ الطلبةُ الإسلاميون مدرستهم الأولىٰ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [**النحل**: ٦٦] ولكن ما أن دخلت الفصائليةُ البغيضةُ العملَ الإسلامي حتىٰ تلاشت العقلية التأصيلية والنقدية، وانسحبت العزيمة الاجتهادية من الحرم الجامعي؛ لصالح الفكر الخرافي في بعض فصائله، والفكر الغثائي في بعضها الآخر! ثم تركت المجال فارغًا للماركسية الاستئصالية، والتيارات العنصرية المأجورة؛ تملأ الجامعة بإرهابها المصطلحي! وسِبابِهَا المفهومي! وإقصائها للدين وأهله!

وكان المفروض في العمل الطلابي أيضًا أن يفرغ أهل التخصصات الشرعية من طلاب الدراسات الإسلامية، وكليات الشريعة وأصول الدين؛ للتحقق بوصف العالميةِ الحقة، بدراسة معمقة، والتفقه في الدين بصورة متفانية؛ لتخريج أجيال من العلماء، إذ العلماء هم القادة للأمة، وهم حياة الأمة، فإذا انقطع امتدادهم انقطع امتداد الأمة! ولكننا لا نرىٰ من المتخرجين من هذه التخصصات الشرعية

-مع الأسف الشديد- إلا طوابير من الجهلة بعلوم الدين! وقد لا يمتلك أغلبهم من العلم الشرعي حتىٰ الحد الأدنىٰ من الضروري لعبادة رب العالمين! وذلك لفساد برامج التعليم الجامعي ومناهجه، ثم لرداءة معادن النماذج الطلابية الملتحقة بهذه التخصصات خاصة، وبأغلب شُعَبِ الجامعة المغربية عامة، لا سيما في هذه السنوات الأخيرة، إلا من رحم الله، وقليل ما هم! وذلك لانهيار منظومة التعليم بأسرها وفقدان مصداقيتها؛ قوةً وأمانةً في نظام التعليم الأساسي والثانوي بالمغرب كله!

فلماذا لم تناضل الفصائل الطلابية ضد هذا العبث الخطير الذي يعصف بالصناعة التعليمية بالوطن كله؟ وأشهد أنني ما رأيت -ولا لمرة واحدة- مظاهرة واحدة، تخرج ضد فساد برامج التعليم، ولا ضد أستاذ يتغيب أو يغش، أو ضد مقرر دراسي هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع! أو ضد مكتبة فقيرة، قليلة المصادر والمراجع، سيئة الخدمات! نعم؛ شهدت مسيرات حاشدة ضد دسامة المقررات الدراسية، وغنىٰ البرامج التكوينية، وضِدَّ جِديةِ سُلَّمِ التنقيط، وصرامة ميزان التقويم، مما وضعته الأطر التربوية بالجامعة؛ لرفع المستوىٰ العلمي، وتطوير الأداء الاجتهادي في الدرس والمتابعة. أما هذا وأضرابه فما رأيت أشد حرصًا علىٰ تخريبه منهم!

وكان المفروض في القطاع الطلابي أيضًا أن يقود حركة ديناميكية مستمرة؛ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل الجامعة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة إلىٰ الله بالتي هي أحسن، وهو الأمر الذي لم نره فيهم، اللهم إلا «حملات» عابرة، ينجزونها أحيانًا بخجل، وكأنهم ينتظرون لحظة نهايتها؛ لينغمسوا من جديد في جدلهم البيزنطي ويسكروا بترهاته إلىٰ إشعار آخر.

ثم كان من المفروض في القطاع الطلابي الإسلامي في نهاية المطاف، وبالتبع لا بالأصالة، وبالدرجة الثانية لا بالدرجة الأولىٰ؛ أن يشتغل بالعمل النقابي التدافعي، والانخراط في المطالبة بحقوق الطلبة المادية، بعد تأمين حقوقهم التربوية، وكان يجب علىٰ الطلبة والمنظرين الإسلاميين لهذا القطاع أن يؤصلوا لثقافة نضالية جديدة، تتخلص من رماد التراث الماركسي الشقي، وتخرج من

بلوىٰ استنشاق دخانه، ثم تصنع مناضلين مؤمنين، تحبهم الإدارة أكثر مما تخاف منهم، وتتفاءل بدخولهم عليها أكثر مما تتشاءم! كان المفروض أن يُخرجَ القطاع الطلابي الإسلامي قادة أقوياء أمناء، يتمتعون برفق في الخطاب، وبلين في السلوك من غير ضعف ولا خَوَرٍ، وبقوة ومناعة في غير عنف ولا شدة. وذلك هو فص الحكمة، التي حُرِمَها هذا القطاع البئيس! فحُرِم البركةَ كلَّها! ولو أنهم كانوا علىٰ شيء من ذلك لصاروا نماذج تربوية يُقتدَىٰ بها، ليس للطلبة فحسب؛ بل لكثير من أساتذتهم أيضًا، ولكثير من الموظفين والإداريين! حتىٰ إذا غادروا الجامعة حَنَّتْ إليهم القلوب، وتعلقت بهم الذكريات! لكنهم اليوم مع الأسف، ما غادروا -في الغالب- إلا وتخلصت من شرهم النفوس وتبعتهم اللعنات المخزيات!

لقد دَرَّسْتُ منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي بالجامعة المغربية إلىٰ يومنا هذا، ولا أحد دخل عليَّ -ولا لمرة واحدة- من هذا الفصيل أو ذاك، فَتَصَدَّرَ منصةَ المدرج أو قاعة الدراسة؛ لإلقاء كلمة هادفة حول قضية الدين في الأمة بما هو عبادة لله رب العالمين أساسًا، ورسالة للناس أجمعين. أو حول أهمية فريضة الصلاة، أو خطورة العري الفاجر، أو لصد هذا السلوك الساقط الذي يلتهم بأنيابه الوحشية الشباب يوميًا، داخل الجامعة وخارجها! أم أن هذا كله خطاب وعظي، ومنهج سطحي، وغيبيات تعبدية ليست من أولويات النضال «الأوطمي»!؟ فإذن مشكلتنا كما ذكرتُ مرارًا هي في تحرير مفهوم «الدين» في أذهان الإسلاميين! فلو أننا حررناه حقًا، وصار كل العمل الطلابي قائمًا علىٰ موازينه، ومرتبًا علىٰ سُلَّمِ أولوياته؛ لكان للإسلام بالجامعة شأن آخر! ولتذهب -بعد ذلك- نُصُبُ «أوطم» وهياكلُها إلىٰ الجحيم!

وإنما كانوا يدخلون عليَّ كما تدخل السباع -ولا أقول الأسود- لترويع الطلبة المستضعفين، وتفريغ المدرجات منهم تفريغًا، ثم الإلقاء بهم -قهرًا- في تيه الضياع! يتسكعون في ساحات الكلية أو في الشوارع العامة! فكلما طاب الدرس وحلا، وتدلت ثماره ناضجة طرية فتهيأ الطلبة للقطاف الْجَنِيِّ؛ دخل الفصائليون الظلمةُ، «المناضلون» ضد العلم والنور؛ فحطموا دوالي الخير، وأفسدوا كل

شيء! فأبادوا بيقة الأمل في وظيفة الجامعة! وكأنهم «يأجوج ومأجوج» ما بُعِثُوا إلا للإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل! كذلك الأمر كان، والله المستعان.

الفصل الثالث
استصنام «الشخصانية المزاجية» في الحركة الإسلامية

من أهم أسباب الوقوع فيما ذُكِرَ من مظاهر الاستصنام غيابُ القيادات العلمية الرسالية، والربانية الحكيمة. وتصدي الزعامات اللا علمية لقيادة العمل الإسلامي، علىٰ المستوىٰ العالي والمتوسط من الهرم الإداري، مما أدىٰ إلىٰ استصنام «شخصاني» لتلك القيادات، وإلىٰ رسم معالم السير الحركي؛ بناء علىٰ مزاجها لا بناء علىٰ قواعد العلم وأولوياته الشرعية!

والحركة الإسلامية اليوم بالمغرب رازحة تحت سلطان شخصية «المثقف» أو شخصية «التكنوقراطي». خالية من العلم وأهله إلا قليلًا، فإذا وُجِدوا فعلىٰ مستويات لا تؤهلهم لقيادة العمل الإسلامي، علميًا وإداريًا؛ فيخضعون هم أيضًا بصورة إرادية لشخصانية القيادات المزاجية. والحقيقة أن هذا الإشكال يتفاوت حضوره من حركة إلىٰ أخرىٰ. لكنه موجود فيها جميعًا علىٰ الإجمال.

وربما خلط بعضهم بين مفهوم «المثقف» ومفهوم «العالِم» وكذا مفهوم «الواعظ». فالتكنوقراطي قد يكون واعظًا ناجحًا، وقد يكون مثقفًا. كل ذلك بغير مجهود دراسي تخصصي، ولا احتراف منهجي وإنما بشيء من الدربة والمطالعة. ولكنه لا يكون عالِمًا إلا بتفرغ تخصصي، وتوجه دراسي رسمي أو غير رسمي، ثم احتراف منهجي لما تخصص فيه وتخرج به؛ حتىٰ يُحَصِّلَ صفةَ «العالمية»، مما هي مَلَكَةٌ وصناعة، كما بيناه في كتابنا: «مفهوم العالميةِ». تمامًا، كما أن الطبيب لا يكون طبيبًا إلا بدراسة منهجية واحتراف علاجي. فالعلم دراسة وخبرة.

والمشكلة أن كثيرًا من الناس -من غير أهل العلم الشرعي المتخصص- قد خلطوا بين المفاهيم؛ بسبب ندرة العلماء الحقيقيين، أو بسبب غيابهم عن الساحة العامة والإعلامية؛ مما أدىٰ إلىٰ وضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب! وإلىٰ تربع بعضهم علىٰ كرسي قيادة العمل الإسلامي، وتقديمه علىٰ أنه (عَالِمٌ) وما هو بِعَالِمٍ؛ وإنما صار كذلك بما خلع الأتباع عليه من الصفات ما لا يستحق!

إننا لا نعرف من الحركات الإسلامية البارزة في الساحة المغربية اليوم، حركة يقودها علماء حقيقيون، اللهم إلا ما قد حصل لبعضها في فترات محدودة. وإنما واقع الحركات الإسلامية بالمغرب في الوقت الراهن أنها تتأرجح بين قيادة «المثقف» وقيادة «التكنوقراطي». سواء علىٰ مستوىٰ القيادة العليا أو القيادة المتوسطة. وربما تُوُهِّمَ أنَّ اشتهار بعضهم بالكتابة والتأليف في الفكر، أو في السياسة، أو في التصوف هو عين العلم، وهو صفة «العالمية»، كلا! فقد بينا في غير هذا الموطن أن صناعة «التأليف» هي غير صناعة «البحث العلمي» المتخصص(١). فذلك كله إنما هو عمل ثقافي، وصاحبه لا يعدو أن يكون مثقفًا فقط. والصفة «الثقافية» هي غير «العالمية». وليس بالضرورة أن يكون كُلُّ مُؤلفٍ عَالمًا. كما أنه ليس بالضرورة أن يكون كُلُّ عَالمٍ مُؤلفًا.

و «كرونولوجيا» الإنسان الدراسية، وسيرتُه العملية بين العلماء وطلبة العلم، وكذا خبرتُه الاحترافية للصناعة العلمية، بحثًا في صُلبِه، وتدريسًا لكتبِه، وتكوينًا لطلبته، واجتهادًا في إشكالاته، ثم افتاءً في نوزاله؛ كل ذلك كفيلٌ بكشف مدىٰ استحقاقه لصفة «العالمية»، إما صِحةً وإما بُطلانًا.

وعليه؛ فغياب العلماء عن مواقع القيادة والتوجه المباشر لأغلب حركات العمل الإسلامي جعلها تقع في استصنام «الشخصانية المزاجية» لمن قُدِّرَ أن يكونوا قادتها اليوم، علىٰ مستوىٰ القيادات العليا والمتوسطة. وذلك ما أدىٰ بها -في بعض أشكالها التنظيمية- إلىٰ انحرافات شتىٰ في مجالات أخرىٰ. فقد تسبب لها الفراغ العلمي الرباني الراشد، في الوقوع بمستنقع الضلالات العقدية،

(١) أبجديات البحث في العلوم الشرعية، للمؤلف.

والانحرافات السلوكية، والانجراف وراء الأهواء والبدع، في العقائد والعبادات، والبناء علىٰ مرجعية لا شرعية، تعتمد الأوهام الخرافية، في المنهاج التربوي والتخطيط الحركي، وفي استصدار المواقف والقرارات وشتىٰ ضروب الأحكام علىٰ الأشخاص والمؤسسات. فكانت بذلك وسيلة إلىٰ التلبسات الشيطانية المتنزلة علىٰ كثير من روادها وأتباعها، في صورة «رؤىٰ» و«مشاهدات»، تناقض أحكام الشريعة وأصولها. وغير ذلك من البلاوىٰ والتخبطات، مما لا نعلمه إلا عن المبتلين بالمس الجني والتلبس الشيطاني، والعياذ بالله.

ومن هنا؛ وفي غياب القيادة العلمية الراشدة، أصبح كثير من الشباب في هذه التيارات الخرافية وأضرابها يغتر بفهم سطحي لحديث رؤيا النبي ﷺ في المنام، الوارد بصيغ مختلفة عن عدد من الصحابة من مثل ما وَرَدَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: **(تَسَمَّوْا بِاسْمِي ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي، وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ!)**(١). لذلك فإن بعض الجهال يُصدقُ كل حلم شيطاني يتجلىٰ عليه في أي صورة خادعة، وأي هيأة ذات «أنوار» و«أسرار» -زعموا- علىٰ اعتبار أن ذلك هو شخص النبي، حاشاه عليه الصلاة والسلام! وإنما الأمر فيه تفصيل شرعي وتقعيد علمي منذ القديم. فقد ورد حديث رؤيا النبي ﷺ في المنام عن عدد من الصحابة، بألفاظ مختلفة، وبطرق متعددة، منها ما جاء عَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال: قالَ النبيُّ ﷺ: **(مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَخَيَّلُ بِي، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ)**(٢). وعَنْ أبي سَعيدٍ الخدريِّ قال: سَمعتُ النبي ﷺ يَقولَ: **(مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَىٰ الْحَقَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَكَوَّنَنِي)**(٣).

والعلماء في هذا فريقان، الأول: يمنع استمرار ذلك بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم؛ علىٰ اعتبار أن المخاطب بالحديث هنا إنما هم الصحابة وحدهم، لأنهم هم الذين شاهدوا النبي ﷺ في حياته وصاحبوه؛ فتمكنوا من

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

معرفة صورته وهيأته والتحقق منها، فإذا رأوه في المنام لم يكن لديهم شك أنه هو شخص النبي ﷺ عينه، وتلك هي صورته علىٰ ما يعرفون منه في النهار مُعاينةً. فلا إمكان إذن لتلبس الشيطان بصورة غير صورته والتجلي عليهم بها؛ زاعمًا أنه هو النبي ﷺ؛ إذ القوم علىٰ معرفة حقيقة به عليه الصلاة والسلام. وهذا كلام وجيه له حظ من قوة الاستدلال.

والفريق الثاني: يرىٰ استمرار ذلك في الأمة إلىٰ يوم القيامة. وهو الاختيار الذي نرجحه ولكن بقواعد العلم، لا بترهات الدجاجلة والخرافيين! وذلك أن إمكان الرؤيا المنامية لصورة النبي ﷺ كما هو في نصوص الحديث الكثيرة عام غير مخصص، ومطلق غير مقيد. وعليه؛ فلا يبعد أن يَرَىٰ اليوم بعضُ الناس النبيَّ ﷺ بشرط أن تكون الصورة التي رآها هي فعلًا عين صورته، وذات هيأته ﷺ. وهنا مزلق كثير من جهلة العُبَّاد، ومرتع كثير من أصحاب الدجل والأهواء. إذ يُصَدِّقُونَ كُلَّ تَجَلٍّ شيطاني يتجلىٰ علىٰ صاحبه، علىٰ أنه هو النبي ﷺ؛ باعتبار أن الحديث يمنع أن يتمثل به الشيطان أو أن يتكونه. وهذا غلط كبير! فقد يتكون الشيطان بأي صورة، ويتمثل في أي هيأة -غير صورة النبي وهيأته- ثم يدعي أنه هو النبي ﷺ! والحديث لا يمنع أن يدعي الشيطان أنه هو النبي، وإنما يمنع أن يتمثل بصورته عليه الصلاة والسلام، وفرق بينهما كبير! بل لقد ادعىٰ الشيطان أنه هو الرب! سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا! وفي الصحيح أن المسيح الدجال سيدعي ذلك أيضًا! فما بالك بادعاء النبوة؟

وعليه؛ فليس كل حلم يراه الإنسان علىٰ أي صورة كانت دال علىٰ أنه هو النبي ﷺ، وأنه مشمول برؤيا الحق الواردة في الحديث، حتىٰ ولو قال الشيطان لضحيته: «أنا النبي» أو «أنا الرسول»! ولقد أضل الشيطان بهذا عددًا كبيرًا من الجهال، والله المستعان! بل لا بد لصحة رؤيا النبي ﷺ في المنام من شروط علمية، ذكر بعضها الإمامُ الشاطبي في كتاب الاعتصام(١). وهي:

- **أولًا**: أن تكون الصورة التي رآها الرائي مطابقة لأوصاف النبي الخِلْقِيَّةِ

(١) الاعتصام ١/ ٢٦٠ - ٢٦٤. طبعة دار الفكر.

الثابتة في وصف هيأته الشريفة عليه الصلاة والسلام، في كتب الشمائل المحمدية، علىٰ ما يضبطه أهل العلم بالحديث وفقهه.

- **ثانيًا**: ألا تتضمن الرؤيا أمرًا أو نهيًا يخالف الثابت من نصوص الشريعة من الأحكام الشرعية أصولًا وفروعًا، ومن الحقائق الإيمانية والغيبية، مما جاءت به نصوص الكتاب والسنة. إذ النسخ لذلك أو التغيير والتبديل ممنوع بالإجماع القطعي بعد وفاته ﷺ. والرؤيا الصالحة ليست أصلًا من أصول التشريع. وكل قول يخالف شيئًا من ذلك كان من البدع المنكرة! مردودًا علىٰ صاحبه بنص صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام -المتفق عليه- من قوله: (مَنْ أَحدَثَ في أمرِنَا هَذا مَ لَيْسَ منه فهو رَدٌّ!) ومن هنا فإن شأن الرؤيا الصالحة مطلقًا -إذا وردت بتوجيه شرعي- ألا تتجاوز ما سبق ثبوته بالنص؛ لأنها -علىٰ حد تعبير الشاطبي- (كالتنبيه لموضع الدليل)[1]؛ ولذلك وجب عرضها علىٰ أهل العلم؛ للنظر في إشارتها إلىٰ موطن الحكم من كتاب الله وسنة رسول الله، فإن لم يكن لها ذلك المساغ طُرحت، وعُلِمَ آنئذ أنها من الشيطان.

- **ثالثًا**: ألا تتعدىٰ الاستفادة من الرؤيا مقاصد النذارة والبشارة لصاحبها خاصة، لا لعموم الناس، ولا للتخطيط لأحوال البلاد والعباد! كما يفعله بعض جهلة الإسلاميين في هذا الزمان. وكل شيء خالف هذه الشروط دل علىٰ أن تلك الرؤيا إنما هي كذب وبهتان، وضرب من إيهام الشيطان!

هذا، وقد أغرب بعض الخرافيين فقالوا بإمكان رؤيته ﷺ في اليقظة بعد موته عليه الصلاة والسلام! بناء علىٰ فهم سطحي لحديث أبي هريرة، المتفق عليه، وهو قَولُهُ رضي الله عنه: (**سَمِعْتُ رسول اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ، فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ ولا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»**. قَال أَبو عبد اللهِ [البخاري] قَالَ ابن سِيرِينَ: إِذَا رَآهُ فِي صُورتهِ). ومعنىٰ الحديث -كما شرحه فقهاء الحديث- هو علىٰ أحد ضربين: إما أنه خاص بأصحاب رسول الله ﷺ، علىٰ أساس أن من رآه منهم في منامه فسيراه قصدًا -بعد ذلك- في يقظته ويستقبله بخصوصه لأمرٍ ما، وكان ذلك علامة علىٰ الإذن بتلقي توجيه ما، أو تنبيه ما، أو بشارة ما، في اليقظة بعد

(١) الاعتصام: ١/ ٢٦٠.

المنام. ولا يصح ذلك إلا لمن عاش زمنَ حياته ﷺ. ومن هنا خصوا الحديث بصحابته رضي الله عنهم.

والثاني: أن يكون اللفظ على إطلاقه مستمرًا إلى اليوم، فتكون رؤيا اليقظة وعدا منه ﷺ وبشارة لصاحبها أنه سيراه يوم القيامة، ويفوز بزيارته في الجنة، أو بشفاعته أو بالشرب من حوضه سُقيًا بيده الشريفة ﷺ!

أما الزعم بأنه يراه يقظة في الدنيا جهارًا نهارًا وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام؛ فهو لعمري جهل مكين وضلال مبين! لأنه مناقض لقواطع الأدلة من الكتاب والسنة، ومما لم يؤثر قط عن أحد من الصحابة والسلف الصالح أنه حدث له! فكيف يحدث في آخر الزمان لحثالة الناس!؟ ذلك هو النقض الصريح لحقائق القرآن، وثوابت الإيمان من أن النبي ﷺ قد مات، وأنه لا يخرج أبدًا من قبره، ولا ينزل من برزخه إلى يوم البعث المعلوم. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١]. ولا يكون مدعي عكس هذا إلا مبتلى بتخبط الشيطان! والله وحده المستعان!

ولا يعكر على هذا حديثُ رَدِّ روحه عليه ﷺ مما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ** عليه السلام»(١) فقد اختلف العلماء فيه اختلافًا كبيرًا. وهو على كل حال خارجٌ عن محل النزاع من مسألتنا؛ لأنه لا يُثبت للنبي ﷺ خروجًا من القبر، ولا نزولًا من البرزخ، ولا تجليًا حيًا في اليقظة على الناس. وإنما غايته أن النبي ﷺ يهبه الله وعيًا معينًا؛ لرد السلام على الناس، أو طبقة معينة من الحياة الأخروية على نحو ما هو ثابت من حياة الشهداء في عالم البرزخ، وهو ما يزال في موته المستمر، والحديث على كل حال استشكله كثير من العلماء(٢)؛ لأنه يقتضي استغراقًا أبديًا في رد السلام؛ إذ السلام على مقامه الطاهر لا ينقطع أبدًا، الليل والنهار! وأما

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ٦/٤٨٨، وشرح الزرقاني على موطأ مالك: ٤/٣٥٧، وعون المعبود لمحمد شمس الحق آبادي: ٦/١٩-٢١.

الأحاديث التي تتحدث عن بقاء حياته ﷺ، وخروجه من قبره؛ فلا يصح منها شيء، كما قال غير واحد من أهل العلم، بل كلها من قبيل الموضوعات!

والقول الختام في مسألة هذا الحديث أنه خبر آحاد، ظاهره معارض لقواطع الأصول الكليات، من كتاب الله وسنة رسوله، الواردة في مسألة موت رسول الله ﷺ ويكفينا أن هذا الوهم قد حصل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند أول صدمة نزلت عليه بخبر موت الرسول ﷺ! كما هو في صحيح البخاري وغيره، فرده أبو بكر الصديق إلىٰ الحق القطعي وبيان ذلك هو كما يلي:

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: **(أن رسول الله ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رسول اللَّهِ ﷺ! قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: «وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلاَّ ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ!» فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رسول اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا! ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ! عَلَىٰ رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جلَسَ عُمَرُ».**

فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. **وَقَالَ:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ (...) ثُمَّ لَقَدْ بَصَّرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ الْهُدَىٰ وَعَرَّفَهُمُ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَخَرَجُوا بِهِ يَتْلُونَ: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رسول ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ») الحديث**[1]. وذلك هو القول الفصل ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٧]. وإنما الموفق من وفقه الله.

أما مشكلة القيادة التكنوقراطية فهي أنها تعاني من غياب «الإمامة العلمية» ذات النظر الفقهي في تقدير المآلات الدعوية، والقديرة علىٰ بسط سلطانها الروحي علىٰ النفوس تربيةً وسلوكًا. والحقيقة أن هذه القيادة -رغم ذلك- أقل تعرضًا للانحراف المزاجي من القيادة الثقافية؛ بسبب الغرور الذي يصحب «المثقف»

---

(١) رواه البخاري.

غالبًا، والعُجب الذي يتلبس به في ذاته؛ مما يؤدي إلىٰ الاستصنام الحركي لشخصانيته! وهو ما يقل عادة في شخصية «التكنوقراطي».

فغياب العالمية الربانية من قيادة العمل الدعوي وتوجيهه، يؤدي إلىٰ عدم القدرة علىٰ الاحتضان التربوي الشامل للحركة وأبنائها. و«الأمم -كما قال- علىٰ دين أمرائها». فلا يتصور أن تُوكَلَ الوظائفُ التربوية والتأطيرية إلىٰ «لجنة علمية» أو «خلية تربوية». فهذا فساد ما بعده من فساد! وقد جربناه مرارًا فما وجدنا فيه إلا إضاعة الوقت في غير طائل! نعم اللجان ضرورة حركية، ولكن تحت الإشراف المعنوي أو المباشر للعالِم الحكيم الرباني. وإلا فستبقىٰ منجزاتها وبرامجها لَقًىٰ مُهْمَلًا يُتْلِفُهُ النسيانُ ويأكله البِلَىٰ في رفوف مقرات الحركة هنا وهناك. وتبقىٰ بعد ذلك جموع المنتسبين لها معرضة بصورة دائمة للاضطرابات التربوية، والاهتزازات الفكرية والتصورية!

ومن هنا تضخمت «الأنا الفردية» لدىٰ كثير من أبناء الحركة، ثم طَفَتْ علىٰ السطح قيادات عالية ومتوسطة، تضخمت (أَنَاهَا) بصورة مرضية بغيضة، حتىٰ إنك تجد أحدهم لا يستطيع أن يتحدث عن العمل الإسلامي إلا من خلال نفسه! ولا يعرض منجزات الدعوة في الوطن -أو في جهته- إلا من خلال تجربته! لما يعاني من الرغبة المرضية الجامحة في تمجيد شخصه! وإشباع شهوة «بطولته»! وبناء صرح مجده! ولو تسمع له وهو يتحدث أن يحاضر لأمكنك أن تَعُدَّ له من «ضمير الرفع المتكلم» -منفصلًا ومتصلًا- مئات العبارات..! من مثل «أَنَا قلتُ وأَنَا فعلتُ»! تمامًا كما قال إبليس من قبل: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [**الأعراف**: ١٢] وكما قال حَلِيفُهُ قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [**القصص**: ٧٨].

وإنْ تَعجبْ فَعَجبٌ كيف يغامر أحدهم بتمجيد ذاته في الدين! علىٰ حساب قصد التعبد والإخلاص فيه! وما الدين إلا إفناء «الأنا» في الله! فأي مدرسة «إسلامية» هذه التي خرجت هؤلاء المشوهين في الفكر التربوي والممارسة الدعوية!؟ أي جرأة صفيقة هذه التي تمكن أحدهم من استعراض بطولته الكاذبة، المنَّانَةِ علىٰ الله؟ والتباهي بأمر لا يملك تجاهه المجاهدون الربانيون حقًا إلا التفاني فيه عن الذات والتنكر لحظوظها؟ حتىٰ لا تكاد تسمع لأحدهم فيه نسبةَ

خطوة واحدة إلىٰ نفسه! مع أنه لا يكاد يجد للراحة من خوض غمار العمل الإسلامي الجاد سبيلًا! قد اغبرت قدماه في ميدانه، وتعددت أدواؤه بما أبلىٰ من جسده في سبيله! داعيًا إلىٰ الله هنا وهناك! ولا استطاع أن يتكلم عن نفسه بكلمة واحدة! ثم نبتت نابتة سوء من الإسلاميين -زعموا- تدعي أنها قد قلبت الدنيا رأسًا علىٰ عقب، وأن الفضل كله يرجع إليها في التمكين للدين ونصرة سيد المرسلين! وأن كل من صلح أمره من المسلمين إنما هو بجهدها! وأن كل من صلىٰ وصام إنما هو بفضلها! يتبجحون بذلك -أفرادًا وجماعات- ثم لا يستحون! عَجَبًا عَجَبًا! فأي جرأة علىٰ الله هذه وأي تَعَدٍّ علىٰ سلطانه!؟ أولاَ يعلمون أن في أمثالهم نزل قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[آل عمران: ١٨٨]**.

تضخمت «الأنا التنظيمية» في الجماعات، ثم تضخمت بداخلها «الأنا الفردية» وتمجدت الذوات! وبسبب ذلك لم تنقطع حركة التمرد الفكري بهذه الحركة أو تلك، وحالات الشرود التربوي، والتشوه الْخُلُقِي، وإنشاء الأحلاف المعاكسة، والجيوب المرضية، والتيارات الشاذة داخل البناء التنظيمي للحركات الإسلامية. وقد تمتد الأمراض من حركة إلىٰ أخرىٰ، أو ربما انفصلت عنها جميعًا لتصنع مِزَقًا أخرىٰ خارجها! ولذلك ظهرت بؤر سرية لبعض الفرق الضالة، كالشيعة الروافض، وجماعة الأحباش، ومنهم من ارتكس إلىٰ الطرق الخرافية، معرضًا عن التصوف السني الأصيل! بل منهم من انسحب من التدين نهائيًا ليتخصص في الشعوذة والدجل الخرافي! ومنهم من ارتمىٰ في أحضان جهات مشبوهة تمتد خيوطها الخفية خارج الوطن، فانخرط في مشروعها الاستعماري، يكتب لها التقارير وينجز لها البحوث؛ فَتُخَرِّبُ باسمه ما لم يستطع أن تخربه باسمها! ومن هنا بدأت تطفو علىٰ سطح تلك المستنقعات الآسنة مقولات رافضية، وأخرىٰ باطنية، كَسَبِّ الصحابة رضوان الله عليهم، والطعن في كتب السنن الثابتة كصحيح البخاري، والتشكيك في بعض أصول المرجعية الإسلامية، وبعض أحكامها المتواترة، سواء علىٰ المستوىٰ العقدي أو المستوىٰ الفقهي؛ تحت غطاء «حرية التعدد المذهبي» تارة، وتحت غطاء «البحث العلمي الأكاديمي» تارة أخرىٰ؛ تلبيةً لأهواء مذهبية دخيلة، أو خدمة لأغراض استعمارية تمتد خيوطه

الخفية إلىٰ جهات معادية للدين والوطن، ولا علاقة لها بالعلم ومناهجه البتة. وانتشرت رائحة العمالة والخيانة، والزندقة -بمعناها الإيديولوجي- من تحت ثياب رموز كانوا إلىٰ عهد قريب أطرًا في الحركات الإسلامية، أو قادة في قطاعها الطلابي!

فكل هذا العَجَب العُجَاب خرج من تحت جلباب الحركة الإسلامية، التي فقدت كثيرًا من موازينها؛ بفقدان القيادات العلمية الراشدة والحكيمة، الموجهة لمسارها العام علىٰ المستويين: الفكري والتربوي. والله المستعان.

الفصل الرابع
استصنام التنظيم «الميكانيكي»

نقصد بالتنظيم الميكانيكي: الأسلوب الإداري التنظيمي الذي يعتمد البناء الهرمي العمودي في إدارة العمل وتسييره، حيث تتركب هياكله بعضها علىٰ بعض علىٰ سبيل التحكم الميكانيكي بين قطعها، فلا يتحرك الأدنىٰ إلا بحركة الأعلىٰ، والعكس غير صحيح. وهو أسلوب إداري اقتبسته الحركات الإسلامية المعاصرة من نظام الأحزاب السياسية. وقد كان الإمام حسن البنا -رَحِمَهُ اللَّهُ وتقبله في الشهداء الأبرار- هو أول من أنشأ تنظيمًا ذا طابع ميكانيكي؛ عند بنائه لجماعة (الإخوان المسلمين) بمصر، ثم ندم عليه من بعد ما وقف علىٰ خطورته التفلتية، علىٰ المستوىٰ التربوي والإداري، حيث انفرط عقد القيادة من بين يديه، وانخرط ما سمي بـ «النظام الخاص» في سلسلة من الاغتيالات أدت بالجامعة إلىٰ فتن ومصائب، ما تزال تتجرع مرارتها إلىٰ اليوم![1] فقال الإمام البنا رَحِمَهُ اللَّهُ مقولته المشهورة: (لو استقبلت من الأيام ما استدبرت لعدت بالإخوان إلىٰ أيام المأثورات!) إشارة إلىٰ رسالته التربوية الصغيرة في الأذكار، أيام عكوف الإخوان عليها وعلىٰ المجالس القرآنية كـ «حديث الثلاثاء» وما شابهه.

والحركات الإسلامية بالمغرب -كأغلب الحركات في العالم- اعتمدت نفس النظام الإداري مع بعض التغيير الطفيف الذي لا يمس الجوهر في شيء. بل قد

---

(١) أنظر كتاب: «الإخوان المسلمون والنظام الخاص: النقط علىٰ الحروف» لمؤرخهم الأستاذ أحمد كمال.

كان الاقتباس إلىٰ الحرفية أقرب عند بعضها، حتىٰ بالتسمية للهياكل الإدارية والبشرية كمصطلح «الشُّعَبِ» و«النُّقَباءِ»! وقد تطور قليلًا عند جهات أخرىٰ ليقتبس أكثر من الأنظمة الحزبية الحداثية ذات البناء الهرمي والتركيب الديموقراطي.
وههنا يكمن الإشكال الاستصنامي. ويتجلىٰ ذلك في ظاهرتين مرضيتين:

- الأولىٰ: استصنام «الأنا» الجماعي:

ففي جميع الأحوال يعاني التنظيم الميكانيكي من مشكلة التقوقع الحزبي؛ بما يشكل لديه فضاء داخليًا مختنقًا، لا يتيح للمنتسبين إليه أن يتنفسوا خارجه. فالدورات الآلي للهياكل التنظيمية يجعل العمل كله يتحرك داخل دائرة مغلقة واحدة، لا تسمح بالإبداع ولا التطور الداخلي. مما يربي في الأفراد تضخم الشعور بـ «الأنا الجماعي»- بالمعنىٰ الحزبي الضيق -الذي هو وسيلة للشعور بـ «الأنا الفردي».

ومن هنا يصير التنظيم -بهذه الصورة- وسيلة لا شعورية لبناء وهم (الجماعة الإسلامية الكبرىٰ)، المتعالية عن الخطأ، وعما فيه الأمة من تدهور وهوان. فينمو فيهم الشعور بأنهم هم الأصل، وأن علىٰ غيرهم أن يكونوا لهم تبعًا. فتنتصب الجماعة معرضًا لاستعراض العلاضلات الحزبية تلبية للشعور المرضي بالنقص، ومعالجة للإحساس بالهوان فيما تعانيه الأمة من جراح ومآس. ومن هنا يتضخم الإحساس بالتنظيم علىٰ حساب الإحساس بالإسلام نفسه! فتتجه سائر الأعمال الدعوية لخدمة الجماعة حتىٰ ولو تعارضت مع أحكام الشريعة في بعض الأحيان! لأن تضخم الشعور الحزبي و«الأنا الجماعي» يملأ أفق النظر في ذهن الأفراد، فلا يروم إلا ذاتهم التنظيمية، وأجهزتهم الحزبية، التي تصبح هي المقياس للحق، وليس الحق هو المقياس لها! فكل تصرفات الجماعة حق، وكل بياناتها حق، ومن هنا فكل استنباط شرعي خالفها فهو باطل، وكل حكم شرعي ناقضها وجب تأويله لصالحها! وذلك ما قصدناه بالاستصنام التنظيمي.

الثانية: استصنام الهوىٰ الديموقراطي:

ومن ذا يستطيع انتقاد الديموقراطية في هذا الزمان؟ وها هي ذي تتربع علىٰ عرش الفكر السياسي في كل مكان! وتمسك بيدها صولجان السلطان في أعظم

البلدان! أليست هي زبدة الفكر البشري في تنظيم الشأن السياسي؟ أليست هي أساس نهضة أروبا وسر تفوق أمريكا؟ ثم أليست هي ما تحلم به الجماهير في العالم العربي والإسلامي بهذا العصر؟ أليس بها تُضْمَنُ الحقوقُ وتُصانُ الحرياتُ للأفراد والجماعات؟ فماذا يشينها إذن وما يثلمها؟

ولكن؛ أليست الديموقراطية هي مبرر الغزو الأورو/أمريكي لبلاد المسلمين؟ أليست هي مسوغ نهب الثروات؟ ومنطق انتهاك الحرمات!؟ وتفزيع الروعات!؟ وتدمير العمران وسائر المنشآت؟ وماذا غيرها شرع فينا كشف العورات؟ وتمجيد المنكَرات؟ فمَنْ تَكلمَ تَهدَّم، ومن سَكَتَ تألَّم! أليست هي التي أطلت علينا بأنيابها وحرابها فشردت الصالحين الأبرياء ومجدت الظالمين الأشقياء؟!

ثم أليست الديموقراطية اليوم هي الدين الوضعي البديل عن دين السماء لكثير من الناس؟ أليست هي مزامير أمريكا؟ بآياتها تتغنىٰ الإذاعات، وبكراماتها تتباهىٰ الفضائيات! تفرضها علىٰ المسلمين فرضًا! وتضربهم بسياطها طولًا وعرضًا! فباسمها تغزو بلادهم، وبنارها تُحَرِّقُ حقولهم، وتخرب ديارهم، وتيتم أطفالهم! حتىٰ إذا رضخوا لها واستسلموا، وظنوا ألا ملجأ منها إلا إليها، وأن اللعبة حق؛ فتمخضت تجربتهم الساذجة عن انتخاب رجال مؤمنين لتدبير الشأن العام؛ غضبت عليهم أمها ومزقتهم شر ممزق بين السجون والمنافي! وصرخت فيهم: «ويلكم! ألم أقل لكم: إنما هي (لعبة الديموقراطية)! فكيف تَجدُّونَ في استثمارها؟»

لقد اصطبغت الديموقراطية بالميكيافيلية في الفكر السياسي المعاصر، ودخلت فيها، كما (دخلتِ العمرةُ في الحج إلىٰ يوم القيامة)[1]، مع فارق الشبه في المجال والمقاصد والغايات، وذلك علىٰ كل المستويات العالمية والمحلية. وتلك قصة أخرىٰ ليس هذا مجال تفصيلها.

وقدس الناس الديموقراطية الليبرالية تقديسًا، سواء فيما هي صالحة فيه، أو فيما ليست فيه بصالحة! واعتبروها «نهاية التاريخ»! فلا أحد يستطيع انتقاصها ولا انتقادها، ولا التمييز بين خيرها وشرها. حتىٰ صار المساس بمحارمها أو انتقاد آلياتها، كانتقاد «الكيان الصهيوني» في أوربا أو أمريكا! من كبائر

---

(١) هو لفظ حديث نبوي شريف رواه مسلم، ولأحمد زيادة فيه، قال: (ثم أَنْشَبَ أصابعَه بعضَها في بعض).

المحرمات وأخطر المهلكات! ومن زعم ألا دلالة للاقتران فليتقدم للامتحان! والله المستعان!

ووقَعت الحركة الإسلامية أيضًا في الفخ! فاستوعب تنظيمها الميكانيكي زبور الديموقراطية، وأدىٰ صلاتها، وأتقن خشوعَها، وأحسن سجودها وركوعها! وانطلقت التنظيمات تبني هياكلها بصورة ديموقراطية، لتقديم النموذج الأجلي لحركتها والمثال الأعلىٰ لخبرتها. فتخرجت الأجيال الجديدة من مدرستها تتقن كل ألاعيبها! ونشأت بينهم الحيل الديموقراطية، «علىٰ مذهب أبي حنيفة»! والمصالح الديموقراطية «علىٰ مذهب مالك»! فتكونت في صفوفهم الأحلاف الديموقراطية، والمناورات الديموقراطية، ثم أتقنوا «اللعبة» حياكة وصياغة! فتسلل بعضُ سفائهم -بديموقراطية- إلىٰ مواقع قيادية، ومناصب ريادية! فأَوْرَدُوا الحركةَ موارد الهلاك بديموقراطية! ونسوا أن الأمر دين! يا ويلهم! وأن الدعوة إلىٰ الله عبادة! إنما يتقدم قيادتَها أعلمُهم بالله ولشريعته، وأفقههم في الدين وفي مقاصده، وأدراهم بالواقع ومآلاته! الجامع بين العلم والحكمة، مُعَلِّمٌ رباني، وقدوةٌ رحماني. وليس أصخبهم صوتًا، وأوسعهم صيتًا، وأدهاهم مناورةً، وأمكرهم خدعة!

إن مشكلة الحركة الإسلامية ذات التنظيم الميكانيكي أنها وضعت الديموقراطية بآلياتها في غير موضعها؛ فانتخبت رجالها بأصوات عَوَامِّهَا؛ لوظائف الشورىٰ ووظائف التشريع الدعوي والتوجيه المنهجي الإسلامي، بشروط الديموقراطية لا بشروط شرع الله! فَتَدَّمَ دهاةُ السفهاء وتوقف حكماء الفقهاء! ومن يدري؟ فعلها غدًا تنتخب إمام الصلاة لمحرابها! فتأتم بالأمكر الأشقىٰ، لا بالأقرأ الأتقىٰ! أم أنها تفرق بين هذا وذاك كما فرق أهل الردة بين الصلاة والزكاة؟! كيف والأمر كله دين؟

ولقد رأينا في مواطن شتىٰ للحركة الإسلامية، كيف تسلق متسلقون المدارج الخفية للديموقراطية، وخدعوا جماهير الحركة بعبارات براقات، فصنعوا أغلبية من رأيها العام، يسوسونها كما يُسَاسُ العوام! ويزجرونها كما تُزْجَرُ الأنعام! فإذا أنكرتَ أو اعترضتَ قيل لك: تلك نتيجة الفرز الانتخابي! فإن قلت: ولكنها

نتيجة سيئة! قيل لك تلك طبيعة العمل الديموقراطي! ثم لن تستطيع إضافة شيء! وإلا كنت من الهالكين! فمن يجرؤ علىٰ انتقاص الديموقراطية؟! ألا فَتَعْسًا لهم ولما يعبدون من دون الله!

لقد كان حريًا بالحركة الإسلامية أن تستلهم تراثها التنظيمي من كتاب ربها، ومن سيرة نبيها سيدنا محمد ﷺ ثم من حركات التجديد عبر تاريخها، ولا حَرَجَ أن تقتبس من نُظُمِ الآخرين ما لا يتناقض وشريعة القرآن، في تربية الإنسان وتجديد العمران؛ بشرط وضعه في محله، و«استصلاحه» مما علق به، من خلفيات وثنية، ومنهجيات استصنامية. فإنما شأن الدعوة الإسلامية أنها دين، وليست شيئًا «ميكانيكيًا» كسائر المنظمات والأحزاب. فلا قيام لها إلا بأن تكون كل أجهزتها تحقق -بذاتها- للعاملين بها فضاءً لعبادة لله، أداةً وقصدًا، ووسيلةً وغايةً. إنَّ «منظومة علوم القرآن» وكذا السيرة النبوية الصحيحة، تتضمن منهجًا تشريعيًا واضح المعالم؛ لتنظيم العمل الدعوي، وترتيب أولوياته. فلا بد للعاملين من استثماره، وإلا شط بهم الانحراف عن المنهاج النبوي الحق بعيدًا عن الهدي السني الأصيل في مشروع تجديد الدين.

إن «التنظيم الفطري» هو البديل الأصيل! للعمل الإسلامي والبناء الدعوي. تنظيمٌ خال من المراتب والألقاب، ولا مجال فيه للأحلاف والأقطاب! ولا مكان لبناء التماثيل والأنصاب! يُقدم الأقوم دينًا والأكفأ خبرةً. وتُجعل المهام في ملفات واضحة، ثم تُسند الاختصاصات إلىٰ أهلها. بلا لغو انتخابي، ولا عبث ديموقراطي. وإنما الشورىٰ الإسلامية المتأنية الهادئة -بين الحكماء الحلماء- هي أساس الترشيح للوظائف والمهام، بلا تَشَنُّجٍ ولا تَغَنُّجٍ! وبلا صَخَبٍ ولا غَضَبٍ! والعمدة في نجاحها إنما هو علىٰ مصداقية أصحابها ضبطًا وعدالةً، وقوةً وأمانةً. فَيقدمُ العلماءُ الرساليون، ويساعدهم الخبراء الربانيون. في دائرة واحدة، ذات سطح واحد متساوي الشعاع، أو مربح واحد متوازي الأضلاع، لا أهرام فيه ولا مناصب، ولا مغانم ولا مكاسب. البذل والتضحية شعار من ابْتُلِيَ بشيء من خدماته. ينفق من نفسه ووقته وماله. لا ينتظر جزاءً إلا من الله، ولا أجرًا إلا علىٰ الله! همه الأساسي مصيره في الآخرة، وادخار رصيده للحياة الآجلة. ثم

تُحطَّم تلك البيروقراطية الميكانيكية الثقيلة، التي تستهلك الجهود والطاقات في كثرة الكلام وتعاقب اللقاءات، ثم لا تنتج في النهاية إلا جعجعة بلا طحين، وصلصلة دون فتح مبين! ذلك وإنما الموفق من وفقه الله.

الفصل الخامس
استصنام العقلية «الْمُطِيعِيَّةِ» وإفشال الوحدة التاريخية للحركة الإسلامية

نقصد بالعقلية «الْمُطِيعيَّةِ»: ذلك المنهج الحركي القائم علىٰ أسلوب المناورة والخداع، في التعاطي للشأن الإسلامي من الناحية التنظيمية والإدارية. وهي صفة منسوبة إلىٰ الأستاذ عبد الكريم مُطِيع، المؤسِّس الرئيس والقائد الأول لحركة الشبيبة الإسلامية، التي تأسست بالمغرب في أوائل السبعينات من القرن الميلادي الماضي. وقد كان للنظريات اليسارية التي تأثر بها الأستاذ مطيع -باعتباره قياديًا سابقًا في أحد الأحزاب الاشتراكية- أكبر الأثر في طبع منهجه الحركي بهذا الأسلوب الخطير، المناقض للثوابت الشرعية في الدين.

ورغم الانهيار التنظيمي للشبيبة الإسلامية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، وتمزقه إلىٰ شظايا تنشط هنا وهناك، فقد ورث بعض الأفراد الصفة المطيعية في تدبير الأمور الحركية في العمل الإسلامي. ونظرًا لكون تلك الشظايا قد أسهمت في تكوين أغلب التنظيمات الإسلامية الناشئة فيما بعد؛ فإنما نقلت العدوىٰ إلىٰ كثير منها، علىٰ تفاوت فيما بينها. وكانت سببًا في تفريخ العقارب الخضراء داخل الصف الإسلامي. وقلما سلمت جماعة حركية من ذلك، إلا من رحم الله.

وعليه؛ فليست «المطيعية» خاصة بمن أدرك الشبيبة الإسلامية وتطبَّع بأخلاقها فحسب؛[1] بل صارت صفة تتجلىٰ -بعد ذلك- في كل من سار علىٰ المنهج نفسه، من الأجيال الناشئة بعدُ في الحركة الإسلامية. ورغم أننا قد عانينا من متاعب التصرفات المطيعية لسنوات في ظروف التعامل مع عدة تنظيمات إسلامية داخل الساحة الجامعية وخارجها -كما سيأتي بيانه في إشارات- إلا أننا سنقتصر في هذا الفصل علىٰ بيان آثار الاستصنام المطيعي علىٰ «حركة التوحيد والإصلاح» خاصة، وما كان لها من تأثيرات سلبية أدت إلىٰ إفراغ وحدتها التاريخية من محتواها! وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد كان للتضخم السياسي الذي رسخته العقلية المطيعية في «حركة التوحيد والإصلاح»- الذي آل في النهاية إلىٰ التجسد في صورة «حزب العدالة والتنمية»- أحد الأسباب الرئيسية في إفشال الوحدة الداخلية للحركة، التي دشنتها مجموعة من الجمعيات الإسلامية بالمغرب ذات الخفيات الاجتهادية المختلفة. ونعني:

- **أولًا**: «حركة الإصلاح والتجديد» (حاتم)، وهي الوريثة الكبرىٰ لحركة «الشبيبة الإسلامية». والحقيقة أنها بذلت مجهودًا كبيرًا في التخلص من الآثار السلبية الكثيرة التي خلفتها حركة الشبيبة علىٰ العمل الإسلامي بالمغرب، وقطعت أشواطًا ومخاضات شتىٰ من أجل تحسين تصوراتها وآلياتها، من المرحلة الشبيبية السرية، إلىٰ مرحلة الشظايا، إلىٰ مرحلة «الجماعة الإسلامية»، ثم مرحلة «حاتم». ومن أهم إنجازاتها الإيجابية أنها خلَّصت أبناء الحركة من عقدة الارتهان بمناهضة النظام السياسي المغربي، تلك العقدة التي ورثتها الحركة الإسلامية من حركة الشبيبة الإسلامية «المطيعية»، ذات الأصول الماركسية من الناحية المنهجية. وأسست منهجًا أقرب إلىٰ التوازن والاعتدال في إصدار مواقفها السياسية. وإن كان يعاب عليها من شيء، فإنما هو عدم تخلص بعض أجنحتها من العقلية المطيعية في تدبير العمل الحركي.

---

(١) ليس المقصود أن كل أعضاء الشبيبة الإسلامية كانوا علىٰ الصفة المطيعية، كلا! بل كان منهم إسلاميون حقيقيون وربانيون صادقون. والتعبير في بداية الفقرة السابقة أعلاه واضح بتخصيص البعض دون الكل.

- **ثانيًا**: حركة «التَّبَيُّين» التي تسمت في وقت لاحق بـ «جمعية الشروق» لأسباب أمنية. وهي مجموعة من الشباب الأذكياء الأتقياء، كانوا ضمن حركة الشبيبة الإسلامية ابتداءً. وفي مرحلة الفتنة الشبيبية، وتورط الحركة في مزالق خطيرة تجرمها الشريعة والقانون؛ مما نتج عنه اضطرابات داخلية، واتهامات متبادلة بين هذا وذاك، بعد فرار الأستاذ عبد الكريم مطيع من المغرب؛ تكونت أحلاف وفرق داخل الجسم الحركي الشبيبي، فصار بعضها يلعن الآخر! في فتنة رهيبة وصلت إلىٰ حد محاولات الاغتيال للإسلاميين فيما بينهم! هنالك اعتزلت مجموعة «التبين» تلك الفتن كلها؛ عملًا بقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. فكانت بذلك أحسن الفرق وأقربها إلىٰ الصواب؛ ولذلك بارك الله في خطواتها بعدُ، وأنتجت -علىٰ قِلَّةٍ- جيلًا من الشباب المؤمن المثقف، طيب المعشر، طاهر الْمَخْبَرِ. وفي تقديري لو قُدِّرَ لهذه الحركة أن تستمر في منهجها باستقلال؛ لكان لها اليوم في المغرب شأن عظيم. وأحسب أنها تضررت بالوحدة الوهمية أكثر مما استفادت. كما سنبين بحول الله.

- **رابعًا**: «الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير» التي كانت تنشط في معظم مدن الشمال. وهي جمعية استفادت من الاحتكاك بجماعة التبليغ، رغم استقلال قادتها عنهم. فقد كان لوجود مسجد الفتح بالمدينة -وهو مركز هام للجماعة علىٰ الصعيد الوطني- أثرٌ بالغ علىٰ الطبيعة التربوية للشباب، فكانت الجمعية تضيف إلىٰ ذلك تكوينًا ثقافيًا وسياسيًا، فصار لها نوع من التكامل، لولا ما كان ينقصها من عدم التحقق بعد التخلق؛ مما سبب لها بعض التساقطات لأفرادها علىٰ المستوىٰ القيادي أحيانًا.

- **خامسًا**: «جمعية الدعوة الإسلامية» بفاس، التي كانت تنشط في مجال تكوين الأطر التربوية والتعليمية والإدارية. وقد كان لطابعها الأكاديمي من جهة، ولبرامجها التربوية المرتبطة بالنصوص القرآنية من جهة أخرىٰ؛ الأثر الأكبر في تخريج أطر تربوية متميزة علىٰ الصعيد الوطني. كما كان لمنشئها التاريخي المستقل، ولاجتهادها المحلي المتميز، وتأثرها بالإرث العلمي والتربوي لبقية

صالحة من علماء القرويين، أفضوا إلىٰ ربهم بعد ذلك رحمهم الله، الأثر الكبير في تميز جمعية فاس بصفتي العلم والحلم في تدبير الشأن الدعوي. وما عِيبَ عليها شيء سوىٰ تقوقعها الأكاديمي وعدم تبلورها علىٰ المستوىٰ الاجتماعي والدعوي العام. ومع ذلك أقول: لو قُدِّرَ لهذه الجمعية أن تستمر مندمجة في العمل الوحدوي لكانت الحركة الإسلامية بالمغرب اليوم أغنىٰ وأقنىٰ!

- **سادسًا:** مجموعات الشظايَا: لم يكن هذا اسمًا حركيًا لتنظيم ما، ولكنه مصطلح وضعناه للدلالة علىٰ عدد من المجموعات الإسلامية الصغيرة، التي تناثرت عن «حركة الشبيبة الإسلامية» بعد انفجار تنظيمها وتمزقه فِرَقًا وأحلافًا. فقد كانت هناك -إلىٰ جانب ما ذُكِر من حركات- مجموعات إسلامية شتىٰ، تنحصر نشاطاتها -في الغالب- في حدود حي واحد من الأحياء بالمدن الكبرىٰ، لا تتعداه إلىٰ غيره إلا قليلًا. وأغلب تجلي هذه الظاهرة كان بمدينة الدار البيضاء. حيث حافظت كثير من الشظايا علىٰ نفسها مستقلة بمنهجها التربوي والتنظيمي لعدة سنوات. لكنها لم تستطع التبلور في مؤسسات حركية كبرىٰ، وإنما ذابت بعد ذلك في الجماعات الإسلامية الأخرىٰ. فمنها ما التحق بجماعة العدل والإحسان، ومنها ما التحق برابطة المستقبل الإسلامي، ومنها ما التحق بالتيار السلفي، ومنها ما تساقط وتلاشىٰ! ومن أهم المجموعات التي اشتهرت في الدار البيضاء: «مجموعة عين السبع»، و«مجموعة الحي المحمدي» و«مجموعة درب السلطان»، و«مجموعة سيدي مومن»، وغيرها.

إلا أن أهم المجموعات التي ساهمت في بناء الوحدة الحركية بالمغرب، في صورة «رابطة المستقبل الإسلامي» أولًا، ثم في صورة «حركة التوحيد والإصلاح» ثانيًا، مجموعة الأستاذ المصطفىٰ الرميد، ومجموعة الأستاذ عبد السلام بلاجي. وأشهد أن المجموعتين كانتا من أنظف شظايا حركة الشبيبة الإسلامية، وأخصلها للعمل الإسلامي. أما المحامي القدير الأستاذ المصطفىٰ الرميد فقد احتككت به كثيرًا، واشتغلت معه لسنوات في جريدة الصحوة -قَدَّسَ اللهُ روحَها!- واقتربت منه في مواقف دعوية أخرىٰ، فوجدت أنه كان رجلًا قَويًا أمينًا حَقَّ قَوِيٍّ أمينٍ! وكانت معه مجموعةٌ خَيرةٌ من الأطر، أشهد أنها كانت من الصالحين المصلحين.

وأما الأستاذ عبد السلام بلاجي فقد كان من أنشط الإخوة في ربط الصلات بين الإسلاميين بالمغرب، وتقريب وجهات النظر بينهم، من أجل بناء وحدة العمل الإسلامي علىٰ الصعيد الوطني. وقد وجدت معه مجموعة من الشباب -في البدايات الأولىٰ لبناء رابطة المستقبل الإسلامي- كانت من أطيب عباد الله خُلقًا، ومن أخلصهم دينًا!

وأخيرًا لا بد -قبل تفصيل مقولاتنا النقدية في شأن «حركة التوحيد والإصلاح» -من الوقوف علىٰ تنظيم إسلامي آخر، قد أُقْصِيَ -مع الأسف- من مشروع الوحدة، بعد محاولة توحيدية فاشلة، سبقت مشروع «حركة التوحيد» بقليل. وهو:

- **سابعًا**: «حركة الاختيار الإسلامي» وهي أيضًا حركة ذات أصول شبيبية. كان قادها من أوائل من انفصل عن الجسم الشبيبي الأكبر. فاستمرت علىٰ النهج السري زمنًا، ثم انقسمت -بعد فشل تجربة وحدوية سابقة- إلىٰ حركتين مختلفتين. بسبب أنها كانت قبل ذلك تحمل تناقضات فكرية ومنهجية في تصورها للعمل الإسلامي، واختلافات تكاد تكون عمودية بين بعض أجنحتها القيادية، تتأرجح بين التأثر بالتشيع -فكريًا لا عقديًا- لفترة محدودة[(١)]، والتأثر بالأدبيات الماركسية في تدبير العمل التنظيمي، وكذا اعتماد الأسلوب «المطيعي» المبني علىٰ منهج المناورة السياسية تجاه الإسلاميين أنفسهم! وقد خَلُصَتْ منهم طائفة، تبلورت في مسمىٰ (الحركة من أجل الأمة)، أحسبها علىٰ خير إن شاء الله. فقد حاولت تأصيل ذاتها في النصوص الشرعية علىٰ قدر طاقتها، وحاولت الارتباط أكثر بالمنهج الإسلامي الأصيل. وقد قرأتُ لها إصدارها المنهجي التأصيلي المرسوم بـ «رسالة البصيرة»، الذي يعتبر محاولة جادة في التخلص من الآثار الشبيبية السيئة، والمذهبيات الشيعية والماركسية، المخالفة للمنهج الإسلامي عامة، والمنهج السني المغربي خاصة. وأحسب أن قادتها من أحرص الإسلاميين علىٰ العمل الوحدوي، ومن أطيبهم معشرًا ومن أخلصهم مَخْبَرًا. كما أحسب أنهم قد ظُلِمُوا في سياق مشروع وحدة فاشلة، سبقت مشروع «حركة التوحيد

---

(١) تبين أن بعض شبابهم قد تشيع بالفعل!

والإصلاح» بقليل؛ إذ أنه لم يُمَيَّزْ بينهم وبين جناحهم الآخر، الذي كان السبب الرئيس في العراقيل. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

هذا، وقد كان لكل واحدة من هذه الجمعيات طابع خاص يميزها عن الأخرىٰ. فلما نضجت فكرة الوحدة في أذهان بعض قادتها المخلصين، كان أهم طموح يُرْتَجَىٰ في ذلك -علاوة علىٰ قصد التوحد ذاته- هو التكامل بين مختلف الاجتهادات، وما يترتب علىٰ ذلك من غني دعوي، وعمق استراتيجي؛ بسبب التعددية الاجتهادية داخل الوحدة التنظيمية.

وأشهد -كمعاين للمرحلة ومعايش لها- أن مشروع الوحدة الحركي قد دشنته بالمغرب إراداتٌ خَيِّرَةٌ، انطلقت من جمعية الدعوة الإسلامية بفاس ابتداءً، ومن الجمعية الإسلامية بالشمال، ثم جمعية التبين بالرباط، فنشأ الاتحاد الإسلامي أولًا، بعد مرحلةٍ سابقةٍ من اللقاءات والتنسيقات التعارفية، منذ أواسط الثمانينات من القرن الميلادي الماضي[(١)]. ثم تبلورت -بعد ذلك- حركةُ الوحدة الإسلامية الأولىٰ بالمغرب، في مُسَمًّىٰ «رابطة المستقبل الإسلامي»، التي ابتُدِئَ تأسيسُها سنة: ١٩٨٨م، وتم الإعلان عنها رسميًا سنة: ١٩٩٤م، وكانت قد أصدرت جريدتها الأولىٰ: «السبيل»، التي صودرت بعد صدور أعدادها الأولىٰ، ثم جريدتها الثانية الناجحة «الصحوة»، التي كان لها من سعة الانتشار ما لم يكن لجريدة إسلامي قبلها![(٢)] ثم دخلت الرابطة في مشروع وحدوي جرئ مع حركة الاختيار الإسلامي المذكورة آنفا، لم تستمر إلا قليلًا حتىٰ أُفشلت -مع الأسف- للأسباب المذكورة قبل. ثم دخلت «الرابطة» بعدها في المشروع الوحدوي

(١) كانت هناك محاولات توحيدية سابقة، منذ أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، حضَّرت لها جمعية الدعوة بفاس والجمعية الإسلامية بالشمال، وشارك فيها الأستاذ عبد السلام ياسين بصفته الفردية، إذ لم يكن قد أسس تنظيمه الأول «أسرة الجماعة»، الذي تطور فيما بعد إلىٰ مسمىٰ «جماعة العدل والإحسان». وقد بلغني ممن أثق به من الذين كانوا وراء فكرة الوحدة الأولىٰ، والتحضير لاجتماعاتها أن نزعة الأستاذ ياسين الشخصانية حالت دون نجاح المشروع؛ فآل الأمر إلىٰ تأسيسه لجماعته المستقلة. والله أعلم.

(٢) كان يدير نشرها باقتدار الأستاذ المجاهد المصطفىٰ الرميد. وقد كان يشتغل معه فيها فريق إعلامي قوي، برئاسة الأستاذ عبد الرزاق المروري، تقبله الله في الشهداء!

التاريخي الكبير، مع حركة «حاتم»، الذي استمر لسنوات يبني هياكل الوحدة ومؤسساتها، قبل أن تقصمه العاصفة السياسية الملعونة؛ فيؤول إلىٰ مجرد أطلال، تُذَكِّرُ بالطموح العظيم الذي كان! وبيان ذلك هو كما يلي: كانت الجلسة التاريخية لمجلس الشورىٰ برابطة المستقبل الإسلامي، الذي انعقد بالرباط إحدىٰ ليالي شهر يونيو من سنة: ١٩٩٦م؛ منعطفًا تاريخيًا مهما في تاريخ العمل الإسلامي بالمغرب ترتبت عنه إيجابيات وسلبيات. وهناك اتُخذ قرار المصادقة علىٰ إبرام الوحدة بين الرابطة بكل مكوناتها: (جمعية الدعوة، والجمعية الإسلامية، والتبين) من جهة، وبين حركة الإصلاح والتجديد: «حاتم»، من جهة أخرىٰ. ولكن قيادة جمعية الدعوة الإسلامية بفاس رفضت القرار بذلك اللقاء؛ باعتبار أن الوحدة لم تنضج بعد، وباعتبار أن المضمون الإسلامي لـ «حاتم» لم يتخلص بعد من خلفيته «المطيعية»، وأصرت علىٰ احترام المرحلية في بناء الوحدة، من تعارفية، فاتحادية، فوحدة. وأن الحوار الوحدوي يجب أن يبدأ بقضايا المضامين والتصورات قبل الهياكل والمؤسسات. لكن الرأي الآخر المرجح للبدء بالأشكال قبل الأقوال كان أغلب كثرةً؛ فأمضي القرار.

ورجع من هناك قادة فاس معتزلين لها غير مشاركين. ولكن جمهور أتباعها سار مع الوحدة إلىٰ حين. وكان أحد القادة آنئذ يقول علىٰ سبيل الأسىٰ والتأسي، متمثلًا بقول موسىٰ ﵇، بعد ضلال بني إسرائيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ **[المائدة: ٢٥]**.

ومضت الوحدة بين «حاتم» و«الرابطة»، علىٰ هذه الصورة والشروط المذكورة؛ فتأسست (حركة التوحيد والإصلاح) في مؤتمر الوحدة التاريخي بمقر حركة «حاتم» بالرباط، يومي: ٢٤/ ٢٥ من شهر غشت لسنة: ١٩٩٦م. ثم عاشت علىٰ أمل عظيم، وحيوية كبيرة في ظروف تاريخية -علىٰ المستوىٰ السياسي العام- كانت لصالح العمل الإسلامي، علىٰ الصعيد العالمي والوطني؛ حتىٰ إذا غادرت الحركةُ الجديدةُ مرحلتها الانتقالية، وشرعت في تأسيس المضامين، وبناء الورقات التصورية علىٰ المستويات التربوية والدعوية والثقافية والسياسية والنقابية بدأ التيار السياسي يجرف الحركة بقوة وبدأت المشاكل الخلافية تصعد إلىٰ

السطح شيئًا فشيئًا. وبدأ اليأس يدب إلىٰ قلوب بعض القيادات العليا والمتوسطة من هذا الاتجاه أو ذاك. وبدأت «الْمُطيعيَّةُ» تبرز من حين لآخر في هذا السلوك أو ذاك! وبدأت الأحلاف الداخلية تتشكل، وتتضخم أكثر وأكثر، خاصة في ظروف الانتخابات الداخلية لرئاسة هذه المؤسسة أو تلك. وكان ذلك سببًا في تجميد عدة شخصيات لعضويتهم في الحركة، أو انسحابهم بهدوء مطلقًا هذا كمرحلة أولىٰ من مراحل الاضطراب في صفوف الحركة.

أما الحركة الثانية: فقد كانت بعد الانجراف العملي لصالح «الوصل» في قضية «الفصل والوصل» التاريخية، التي تعلقت بإشكال طريقة التعامل مع «حزب العدالة والتنمية»، حيث انتصبت هناك قضية وجود شخصيات قيادية تجمع بين عدة مهام وصفات، من عضوية المكتب التنفيذي للحركة، إلىٰ عضوية الأمانة العامة للحزب إلىٰ قيادة الإطار النقابي أيضًا: (الاتحاد الوطني للشغل بالمغرب) إلىٰ عضوية البرلمان! . . . الخ. فحصل اتفاق أعلن بمجلس الشورىٰ بضرورة الفصل بين المؤسسات، يتم تنفيذه علىٰ مراحل؛ وذلك بألا يجمع أحد بين مسؤوليتين. فمن كان عضوًا في المكتب التنفيذي للحركة لم يجز له أن يكون عضوًا في الأمانة العامة للحزب أو النقابة. ولا أن يكون منتخبًا برلمانيًا؛ من أجل الحفاظ علىٰ صفاء العمل الدعوي، وقدرته علىٰ مخاطبة جميع التيارات، واستيعاب كل الاتجاهات، وألا تتورط الحركة في منافسة الأحزاب السياسية، بل تكتفي بالتوجيه العام وتترك الفعل التنافسي للحزب وحده. ولكن شيئًا من ذلك لم يقع فقد عمد رؤوس التيار السياسي لخلط الأوراق، والجمع بين كل المهام؛ لأسباب شتىٰ ليس هذا أوان ذكرها. فصارت الحركة والحزب في الواقع وجهين لعملة واحدة! وصارت الدعوة خادمة للسياسة، والعكس غير صحيح! وفي الجناح السياسي عقاربُ خُضْرٌ وبعضُ شياطين! وتلك أسوأ خطيئة وقعت فيها حركة التوحيد والإصلاح!

إن التضخم السياسي للحركة، والانتفاخ السرطاني لحزب العدالة والتنمية الذي بَاءَ بإثمه التيارُ المطيعي، ثم تتابع الهجرات أو بالأحرىٰ التهجير الجماعي للشباب من الحركة إلىٰ الحزب واستقطابه للأفراد العاملين في المجال التربوي والتكويني

بصورة غير مشروعة في كثير من الأحيان، علىٰ طريقة الهجرة السرية حينًا، والارتماء علىٰ أخشاب قوارب الموت، أو علىٰ طريقة هجرة الأدمغة؛ طمعًا في الرواتب العالية حينًا آخر؛ مما أدىٰ إلىٰ حشده لكل الطاقات الحركية والنشيطة قيادةً وشبيبةً! قد أنتج ذلك كلُّه الموتَ السريع للعمل التربوي، وانهيار كل الوظائف الأساسية لحركة التوحيد والإصلاح، مما قررته في أدبياتها الإجماعية، أعني الأركان الوظيفية الثلاثة: «الدعوة والتربية والتكوين». فصارت اللجان المختصة بها لا تجد مخاطبًا في الحركة ولا خارج الحركة، إذ لم تعد لها القدرة النفسية علىٰ مخاطبة العموم بشيء من ذلك؛ فآلت ملفاتها إلىٰ رفوف الإهمال! فلا دعوةَ -بَعْدُ في الحركة- ولا تربية ولا تكوين!

وفي غياب الغطاء التربوي والخطاب الإيماني، وتمرد كثير من الأعضاء علىٰ مجالسه؛ فَسَدَ دينُ بعض العاملين في الصف الإسلامي! وانتشرت العقارب الخضراء في كل جهة وقطاع! حتىٰ صارت مواعد اجتماع بعض المؤسسات الحركية، مثل مجلس الشورىٰ، أو الجمع العام، أو جموع القطاع الطلابي، أو نحو هذا وذاك؛ مناسبات لإشعال حرب الكلام واحتطاب الآثام! حتىٰ إذا أخذ الغضبُ من بعضهم عقلَه، وسلبه تمييزَه ولُبَّهُ؛ انفجر جهرًا بالسوء! وما زلت أذكر بعض مجالس الشورىٰ التي وُضِعَتْ في الأصل لجمع آراء ذوي العقول والأحلام، كيف كانت تتشكل فرقًا وأحلافًا، وتَتَرَّسُ ببعض زوايا مقر الحركة لتحصين مدافعها ضد إخوانها! وإني لأذكر بعض تلك الوجوه البئيسة! من «أهل الحل والعقد» يا حسرة! كيف كانت تتخير خنادقَها بين الكراسي، وترتب أرقامَ تدخلاتِها ومواقَعها بعناية؛ قبل من تكون؟ وبعد من؟! حتىٰ إذا افتُتِحَتِ الكلمات وحميت النقاشات واشتعل الشرر! لم تسمع منها إلا عبارات اللمز، ولم تَرَ بينها إلا إشارات الغمز! في مناورات من الدجل والحيل؛ من أجل «ترشيد» قرارات العمل الإسلامي وخططه! زعموا، والله المستعان!

وعندما تحركت عجلة الاستحقاقات السياسية بالمغرب، غرق حزب العدالة والتنمية فيها إلىٰ أذنيه! وغرقت معه كل الطاقات العاملة في الحركة، التي لم يبق من هياكلها في الوجود إلا الأسماء!

فكانت هذه العجلة التي تمضي بالحركة في هذا الاتجاه السبب الرئيس في انسحاب كثير من الطاقات الدعوية وانزوائها، أو اختيارها لبدائل أخرىٰ بهذه الصورة أو تلك، كُلٌّ علىٰ حسب اجتهاده. وقد حصل ذلك عبر مرحتين:

- **مرحلة الانقلاب الحاتمي**: وهي المرحلة الممهدة لتفرد الحزب بكل شيء. حيث صارت الوحدة المذكورة تتطور في اتجاه ترسيخ الاختيارات «الحاتمية» بالدرجة الأولىٰ[1]. وحصل هناك إشكال كبير علىٰ مستوىٰ المنهج، وهو أن خطوات التوحيد تمت كما ذكرنا بين الأشكال قبل أن تتم بين الأقوال، أعني أنها تمت علىٰ مستوىٰ المؤسسات الإدارية والتنظيمية قبل أن تتم علىٰ مستوىٰ الأفكار والمواقف والتصورات. وهذا أدىٰ في النهاية إلىٰ توحيد الأشباح دون توحيد الأرواح! وما زلتُ أذكر أن الجموع العامة والمجالس الشورية والتنفيذية كان يغلب عليها عند التصويت الانقسام إلىٰ قسمين بارزين: أصوات أبناء «الرابطة» في جهة، وأصوات أبناء «حاتم» في جهة أخرىٰ! نعم؛ حصل بعض الانسجام فيما بعد؛ ولكن بعد انسحاب قيادات رابطية مؤثرة، وذوبان أخرىٰ في «المطيعية» -مع الأسف- والتطبع باستصنامها!

و«حاتم» جماعة إسلامية خَيِّرَةٌ. هذا لا مراء فيه. وفيها من الصالحين من نظن -إن شاء الله- أنه لو أقسم علىٰ الله لأبره! ولكن المشكلة أنها كانت ما تزال تعاني من شغب شرذمة ذات نزعة «مطيعية»، تناسلت حتىٰ صنعت جيوبًا قوية

---

(١) لا بد هنا أن أقدم كامل اعتذاري لإخواننا من حركة حاتم (سابقًا). فقد وجدنا في الحركة مجاهدين مخلصين، وقياديين صالحين -كما بيناه في المتن- ليس في المجال الدعوي فحسب؛ بل حتىٰ في المجال السياسي. وإنني أحترم اجتهاداتهم مهما حصل من خلاف. ويحضرني هنا علىٰ رأس القيادات السياسية الصادقة أخونا وصديقنا الداعية الحجة الأستاذ أبو زيد المقرئ الإدريسي حفظه الله.

وغير أبي زيد من القياديين الحاتميين الصادقين كثير، في الحزب وفي الحركة، لا يتسع المجال لذكرهم. لكنهم وإن كانوا أصلحَ أمانةً فهم أضعفُ قوةً! ولذلك فإن المطيعية -مع الأسف- كانت لها الغلبة؛ ففرضت طابعها علىٰ العمل كله! ثم حرَّفت الاتجاه بأساليبها غير المشروعة! وقد عُلِمَ في قواعد علم أصول الفقه أن الحكم علىٰ الظواهر والأشياء، مما امتزج فيه الخير والشر، إنما هو بمقتضىٰ ما غلب منهما. وقضيتنا ليست من قبيل ما يدرس بمنطق الخير والشر، كلا وحاشا! وإنما نستفيد الميزان الفقهي لمعالجتها، علىٰ أننا إنما ندرسها بمنطق الخطأ والصواب، وأما النياب فمهما بدا لنا فيها من ظواهر مقرفة، فإننا لا نُعَيِّنُ أحدًا من أصحابها تعيينًا، ونكل أمرهم إلىٰ الله، وهو وحده المستعان.

وأحلافًا! تمتد من المركز إلىٰ شتىٰ جهات الوطن! ونصبت لها أصنامًا في كل منطقة وقطاع! ولِكُلِّ جماعةٍ سُفهاؤُهَا نعم؛ ولكن «المطيعية» كانت اسوأ ما رأيت بين الإسلاميين! وهي ظاهرة ما تزال مستمرة -مع الأسف- بين عدد من التنظيمات الإسلامية بالمغرب، كالعدل والإحسان، والاختيار الإسلامي (سابقًا)، وحركة التوحيد والإصلاح، وغيرها، بتفاوت بين هذه الجماعة وتلك.

وعلىٰ الرغم من أن غالبية أطر «حاتم» من الصالحين المصلحين، وعقلاء المثقفين؛ فقد كانت الطاقات المطيعية هي التي توجه الجماعة -بمناوراتها وأحلافها- إلىٰ ما تريد في النهاية! تدفعها حُمَّىٰ الشخصانية الرهيبة! فالمُطيعيونَ -سواء منهم القدامىٰ والجدد- مَرْضَىٰ بتضخم «الأنا»، إلىٰ درجة الشذوذ! ليس علىٰ المستوىٰ الوطني فحسب؛ بل علىٰ المستوىٰ الجهوي أيضًا! قد أُشرِبُوا حُبَّ الزعامة والرياسة حتىٰ صار ذلك فيهم مرضًا مزمنًا! تعابيرهم تنطق بعشقها علنًا؛ لشدة ما تتقد شهوتها في نفوسهم! ولا هم بقادرين علىٰ مقاومتها ولو بالكتمان! ولا أراهم قادرين علىٰ التخلص من أدوائها؛ إلا أن يُحَالُوا علىٰ مستشفىٰ الأمراض النفسية!

وكثيرًا ما يعجب بعض الإخوان متسائلين: لماذا لم تستطع تيارات الأغلبية مواجهة الأصنام المطيعية داخل الحركة؟ وهذا السؤال مشروع لو كان الأمر يتعلق بتنظيم ساسي محض، أو بمنظمة لا دينية. ولكن الأمر هنا دين! إذ مواجهة مثل هذه الأحلاف الشاذة تحتاج إلىٰ قدر لا بأس به من الشذوذ لمغالبتها! فلا بد من اعتماد قاموس من الشتائم والإهانات علىٰ وِزَانها، وركوب أساليب الخداع والمناورات علىٰ أشكالها! فأين هي (الإسلامية) إذن؟ وقديمًا كان أحد الربانيين يصطحب معه سفيهًا، أنَّىٰ رحل وارتحل! فعجب الناس من ذلك، فقيل له: «يا شيخُ لِمَ تصطحب هذا السفيه؟» فقال: «ليرد علىٰ السفهاء!»

وصارت هذه الحكمة مثلًا سائرًا، لأن السفيه لا يغلبه -في الظاهر- إلا سفيهٌ مثلُه، أو أشد سفها! ونحن لسنا بسفهاء -نعوذ بالله!- ولا نستطيع أن نصطحب السفهاء! بل من خدعنا بالله انخدعنا له، ولكن إلىٰ حين، فالمؤمن لا يلدغ من

جحر مرتين! ولذلك فضلنا الانسحاب من مواطن السَّفَهِ بسلام. وأَمْرُ الدعوة أوسع من أن نتدافع فيه مع هؤلاء، والله المستعان.

وفي بداية الوحدة وقع حادِثٌ قَدَرِيٌّ محزن، ترك بصماته علىٰ الحركة كلها؛ لحكمة يعلمها الله، وهو موت الأستاذ المجاهد عبد الرزاق المروري هو وزوجه، في حادثة سير أليمة! يوم سابع نونبر من سنة: ١٩٩٦م. رحمهما الله وتقبلهما في الشهداء! كان لموت هذا الرجل في المرحلة الأولىٰ من تأسيس الوحدة -بعد نحو شهرين من تاريخ التأسيس- أبلغ الأثر في اضطراب التعادل بين التنظيمين، وفقدان التوازن في قانون التدافع بين المواقف والتصورات. وقد كان الأستاذ المروري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمة وحده! فقد كان قائدًا ناجحًا لحركة التبين آنئذ، ومن القيادات النشيطة لرابطة المستقبل الإسلامي. كما كان طاقة فكرية فياضة، مثقفًا واسع الاطلاع، ذا قدرة إعلامية ذكية، شجاعًا في إعلاء الحق، قويًا في مواجهة الباطل! وكان موته خسارة للعمل الإسلامي عامة وخسارة لرابطة المستقبل الإسلامي خاصة، وسببًا في فقدان جزء مهم من قوة الاتجاه التربوي والتكويني لصالح الاتجاه السياسي الصرف في حركة التوحيد والإصلاح. ولله الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعدُ!

وبعد موته بسنوات قليلة بدأ صاحبه المخلص الأستاذ المجاهد أحمد المشتالي، ورفيق دربه في قيادة حركة التبين، ينسحب -علىٰ المستوىٰ النفسي- شيئًا فشيئًا، من قيادة حركة التوحيد، بعد مدافعات يائسة مع الاتجاه المطيعي؛ إلىٰ أن اعتزل العمل القيادي والتوجيهي في الحركة مطلقًا! وظل يحضر لقاءاتها بوضعية أشبه ما تكون بوضعية «المراقب»! وإنها لخسارة جسيمة أن يفقد العمل الإسلامي بالمغرب الحضور الفعلي لرجل قوي، يملك من الصفاء الروحي والذكاء العقلي مثل ما يملك الأستاذ أحمد المشتالي! ثم انسحبت من الحركة طاقات «تَبَينيةٌ» قيادية هامة، علىٰ وزان المشتالي أو تكاد![1]

---

(١) أعرضنا عن ذكر بعض الأسماء؛ لحساسية مواقعهم الإدارية في وظائفهم الرسمية الحالية، أو لأننا نعلم أنهم لا يفضلون ذكر أسمائهم في المرحلة الراهنة.

وبعد نحو سنتين من انطلاق الوحدة تواترت انسحابات شتىٰ من أبناء الرابطة، خاصة من جمعية الدعوة بفاس، وأغلبهم من القيادات المتوسطة؛ لأن القيادات العليا لم تمض في مشروع الوحدة الأخير أصلًا، وإن كانت قد أسهمت بقوة في التنظير له ابتداءً. وقد كان انسحاب الأستاذ محمد أمناس من عضوية المكتب التنفيذي سنة: ١٩٩٨م، بداية فعلية لعودة كثير من أبناء المدرسة الفاسية إلىٰ الالتفاف من جديد حول برامجهم التربوية القرآنية(١).

وكانت خاتمة المرحلة الأولىٰ من الانسحابات الموازية للتطور السريع لعملية طبخ التوجه العملي علىٰ الميزان «الحاتمي» في الغالب؛ أن آلت «حركة التوحيد والإصلاح» إلىٰ صورة «حركة الإصلاح والتجديد»: «حاتم»، بصورة استردادية، لكن في طبعة جديدة، لك أن تقول: «إنها مزيدة ومنقحة!» لأن التوحيد الحقيقي إنما هو توحيد الأفكار والتصورات، قبل أن يكون توحيد الأسماء والشخصيات.

وفقدت جريدة «التجديد» جِدَّتها بعد قرار إصدارها اليومي؛ فآلت من حيث المنهج الإعلامي إلىٰ شبه ناطقة باسم «حزب العدالة والتنمية»! ولم لا؟ فقد صارت الحركة والحزب وجهين لعملة واحدة! فصارت الجريدة -بعد ذلك- منبرًا خاصًا لتلميع بعض المطيعيين من ذوي الطموحات الشخصية مع الأسف! ودخلت إدارتُها بسبب ذلك كله في دوامة من التخبطات، بإسناد الأمور إلىٰ غير أهلها من جهة؛ والطرد المنهجي لثلة متميزة من الصحفيين الشباب، لا لذنب؛ وإنما لأنهم لم يستجيبوا للترويض المطيعي، ولم يخضعوا للتطويع الشخصاني؛ مما أدىٰ إلىٰ تراجع مبيعاتها وكساد نسخها، ثم بوارها في سوق الإعلام! والله المستعان.

لقد كانت حركة التوحيد والإصلاح في بداية عهدها عبارة عن مدارس شتىٰ، تربوية، ودعوية، وفكرية، وعلمية، وسياسية ... الخ. ولكن قاطرة الحزب

---

(١) لم يُقَدِّر بعض الإخوان -مع الأسف- في حركة التوحيد والإصلاح وطنيًا، ولا جهويًا -علىٰ صعيد جهة مكناس خاصة- الحيوية الإدارية، والقوة التنفيذية، التي كان يتمتع بها الأستاذ محمد أمناس. كما أن بعضهم لم يطق التعامل مع جديته الصحراوية الصارمة؛ فكان ذلك سببًا في مضايقته بأساليب شتىٰ، زادها حدةً ما لاحظه هو في الحركة من خروقات لا قِبَلَ له بها؛ مما أدىٰ إلىٰ نفوره وانسحابه كلية، بصورة مفاجئة جارحة، من حركة الوحدة في وقت مبكر جدًا.

السياسي تفردت بالجر فتناثر حولها كل شيء![1]

- **أما المرحلة الثانية** من التطورات والانسحابات (ما بعد سنة: ٢٠٠٠م)؛ فقد تميزت بموت تدريجي لحركة التوحيد والإصلاح في صورتها «الحاتمية» الأخيرة، ومسخها إلىٰ صورة «حزب العدالة والتنمية»! نقول ذلك ونحن نعلم ببقاء أطلالها قائمة، في شكل هيئات ومقرات خاوية من مضمونها الأصيل، دعوةً وتربيةً وتكوينًا، وأفراد هنا وهناك، لا فاعلية لهم ولا حياة؛ إلا إذا دُعُوا إلىٰ ملتقىٰ سياسي محض، أو دخلوا في حُمَّىٰ الانتخابات والدعايات! وفي هذه المرحلة المتأخرة كان انسحاب عدة أفراد، ودَحْرَجَةِ آخرين! فمن المنسحبين الأستاذ الفقيه محمد الروكي، والأستاذ أحمد العبادي، والأستاذ فريد الأنصاري، ومن المُدَحْرَجينَ -بصورة مباشرة أو غير مباشرة- الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني الرئيس الأول لحركة التوحيد، الذي استقال من رئاستها سنة: ٢٠٠٣م، والأستاذ المجاهد المصطفىٰ الرميد الرئيس الأول للفريق البرلماني! الذي أزيح من رئاسته أواخر سنة: ٢٠٠٣م.

وأما المفكر الإسلامي الأستاذ أحمد الريسوني فأمره عجيب! ما رأيت أقوىٰ منه ولا أصبر علىٰ ترويض السباع! ولكنها -مع الأسف- أكلته في النهاية![2]

---

(١) زاد الطينَ بلةً تزكيةُ الحزب لبعض الانتهازيين المحسوبين علىٰ الحركة، ثم تزكيته لبعض الوصوليين ممن لا علاقة لهم بها أصلًا، لا انتماءً ولا تربيةً! أما ثالثة الأثافي لإحراق ما بقي له من المصداقية فهي تصويته المخزي؛ لتمرير بعض القوانين الظالمة التي صارت من أول يومها سوطًا رهيبًا في يد الاستئصاليين، يجلدون به ظهور الدعاة هنا وهناك، وَيُغَلِّقُونَ به مدارس القرآن، ويحاصرون المساجد، ويرهبون به كل من نادىٰ بحقوق الله! ولو كان الفريق البرلماني فريقًا مبدئًا حقًا لامتنع عن التصويت علىٰ مثل تلك المخزيات! نعم! ولو أدىٰ ذلك إلىٰ الاستقالة الجماعية أو حتىٰ إلىٰ حل الحزب كله! ولن تقع السماء علىٰ الأرض بعد ذلك! كلا! ولن تسقط للمساجد صوامع ولا قباب! فقضية الدين بالمغرب أرسخ من أن ترتبط بوجود حزب أو أوهام جماعة! بل هي محفوظة بالله أولًا، ثم بتضامن الأمة المغربية الأصيلة مَلِكًا وشَعْبًا. ولو وضعنا كل إنجازات الحزب في كفة -إن كانت له إنجازات- ثم وضعن خطيئة التصويت علىٰ حصار الدعوة إلىٰ الله؛ لكفىٰ بسواد هذه أن يغمر كل بياض! كذلك الأمر كان، والله المستعان!

(٢) لم تكن قضية تصريحات الدكتور الريسوني الصحفية هي السبب الحقيقي وراء فقدانه لموقعه القيادي في الحركة، ولكنها فقط كانت هي النقطة التي أفاضت الكأس! وإلا فقد كان من الخطأ الجسيم أن تُقبل استقالته في تلك الظروف السياسية الدقيقة! وأنا أعلم أن بعض المطيعين قد استقبلوها بحفاوة =

وهنا -في نظري- انتهت اللعبة! علىٰ حد تعبير الدكتور محمد الدوري، بُعَيْدَ سقوط بغداد! وهو آنئذ ممثل العراق في الأمم المتحدة (سابقًا).

ولم يبق في تقديري إلا من هضمته «المطيعية»، أو من لا يزال حلم بشيء من الوهم ف القدرة علىٰ تصحيح المسار! وأذكر أن الأستاذ الذكي الدكتور رضا بن خلدون قد كتب -قبيل الوحدة- مقالًا بعنوان «الدرس الحاتمي»؛ تصفيقًا لتغييرات بشرية في قيادة حركة الإصلاح والتجديد «حاتم» يومئذ، وأحسب أن المقال كان قد جاء قبل إبَّانِه بكثير، حيث استعجل الدكتور التقويم، ولم ينتظر حتىٰ نهاية الدرس! وإنما «الأمور بخواتمها» كما تقول القاعدة الشرعية!

لقد صارت قصة الوحدة -ذات البناء التراجيدي الحزين- إلىٰ ما يلي:

كانت البداية تأسيسًا طموحًا لوحدة إسلامية وطنية، في أعظم قسم من أقسام العمل الإسلامي بالمغرب، وتأليفًا لأوعىٰ نخبة مثقفة من رجاله! ولكن بعد نحو سنتين من العمل، بدأ يظهر أن الوحدة صارت تؤول حقيقتُها إلىٰ مجرد «التِحَاقٍ» لرابطة المستقبل الإسلامي بحركة الإصلاح والتجديد! للأسباب المذكورة آنفا. ثم بعد الانتخابات الوطنية للبرلمان المغربي، لسنة: ٢٠٠٢م، صارت «حركة التوحيد والإصلاح» في صورتها «الحاتمية» تؤول إلىٰ مجرد «التحاق» بحزب العدالة

= وتهليل! بل لقد كانوا ينتظرونها منذ زمان! فقد شهدتُ شخصيًا محاولات دحرجته عن مواقعه القيادية قبل ذلك بسنوات! بدءًا بمحاولة إزاحته من رئاسة تحرير التجديد -وهو رئيس للحركة آنئذ- إلىٰ المآل الذي صار إليه بعد، وهو في ذلك كله علىٰ وعي تام وصبر عجيب؛ بما نعلم من عقليته المقاصدية، ونفسيته اللوامة الشديدة! حتىٰ تم إخراج الصورة في النهاية -مع الأسف- علىٰ أن أحمد الريسوني هو رأي الجناح المتطرف في الحركة! وأنا علىٰ يقين من أنه من أكثر الناس اعتدالًا وتوسطًا، عن علم واجتهاد لا عن ممالأة وتقليد! ومعلوم أن المكتب التنفيذي قد احتفظ باسمه؛ ولكن معلوم أيضًا أنه لم يحتفظ بشخصه! ففقدت الحركة بعد ذلك توازنها من بعد ما فقدت رجل التوازنات!

لقد اختار الدكتور الريسوني أن تخرق رصاصة الاستئصاليين صدره علىٰ أن تخرق صدر الحركة؛ ارتكابًا لأخف الضررين -في نظره- اتقاء لأشدهما! لكن الواقع أن الرصاصة قد خرقت صدرها معًا! وما كان لها أن تخرق صدره ولا صدرها لو عولج الأمر بغير ذلك الأسلوب المتسرع! ثم خرج الرجل إلىٰ منفاه الاختياري بهدوء، وحال لسانه ينشد كما أنشد شاعر العرب من قبل:

وَلِـي دُونَـكُـمْ أهْـلُـونَ سِـيـدٌ عَـمَـلَّـسٌ ... وأرْقَـطُ زَهْـلُـولٌ وعَـرْفَـاءُ جَـيْـأَلُ

هُـمُ الأهـلُ لا مُـسْـتـودَعُ الـسِّـرِّ ذائِـعٌ ... لَـدَيْـهِـمْ ولا الـجـانِـي بِـمَـا جَـرَّ يُـخْـذَلُ

والتنمية! وتفريغ لطاقاتها في متاهاته المظلمة! وانتهت القصة![1]

والنتيجة المأساوية المترتبة عن كل ما سبق أن «حركة التوحيد والإصلاح» -إضافةً إلىٰ فشلها الوحدي- قد فشلت أيضًا في تقديم منتوجها (الإسلامي) الذي تزعم أنها تتميز به وتتفرد! وبيان ذلك كما يلي:

- **علىٰ مستوىٰ الهدف**: دبجت الحركة في ميثاقها منذ مراحل بنائها الأولىٰ أن هدفها الأول هو «إقامة الدين» علىٰ كل المستويات من الفرد إلىٰ الأسرة إلىٰ المجتمع إلىٰ الدولة إلىٰ الأمة![2]. وأقول بكل أسف إنه -بالنسبة لواقعها الداخلي- هدف وهمي! لأنه بكل صراحة هدف مبني علىٰ مجرد التمني! إذ الحقيقة المرة أن العقلية المطيعية صيرت الحركة -في كثير من منتسبيها- بلا دين![3] كما بيناه في غير ما سياق بهذه الورقات، علىٰ المستوىٰ المركزي، والجهوري، وعلىٰ المستوىٰ القطاعي الحزبي والنقابي والطلابي جميعًا! والقاعدة المنطقية أن فاقد الشيء لا يعطي! لقد فشلت الحركة فشلًا ذريعًا -كما تَبَيَّنَ قبلُ- في تصنيع منتوج «الأمانة»! وذلك هو جوهر الدين، الذي تزعم أنها وُجِدَتْ لإقامته فيما ذُكِرَ من مجالات كبرىٰ. والحديث الصحيح صريح في أنه «**لاَ إِيمَانَ**

---

(١) وإني لأذكر الآن مقولة طالما رددتها؛ إسهامًا في تقويم السير العام للحركة، وأنا يومئذ بمكتبها التنفيذي، أشاهد عملية التحريف المنهج لقطار الحركة عن سكته: (إن حركة التوحيد والإصلاح تنحرف عن حركة التوحيد والإصلاح!) وكان لذلك الكلام لكثرة ما كررته صدىٰ واعترافًا من لدن بعض من أسهموا في تغليب السياسي علىٰ الدعوي، فاقترح مقترحًا عجيبًا وهو أن نتخذ مكتبين تنفيذيين اثنين! أحدهما لتدبير شؤون الحركة «دعوةً وتربيةً وتكوينًا»، والآخر لتدبير الشأن السياسي! فقلت: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

والذي لا شك فيه أن الورقات المنهجية والتصورية التي أنجزتها حركة التوحيد والإصلاح لا غبار عليا ولا إشكال علىٰ الإجمال. وإنما المشكلة أنها بقيت مع الأسف بلا تفعيل حقيقي، وتعاملت معها قيادة الحركة وأطرها بأسلوب «الحملات»، لا بمنهج العمل المدرسي الثابت، الذي هو وحده منهج الدعوة والتربية والتكوين والبناء. وفي ظل ذلك صار العمل السياسي للأفراد هو الأصل، وصار العمل الدعوي هو التابع!

(٢) الميثاق: ٥٢-٥٧. إصدار حركة التوحيد والإصلاح.

(٣) المقصود: ضعف الدين ولينه، كما بيناه من قبل بهذه الورقات. وعلىٰ ذلك يجب فهم الحديث المستشهد به في السياق الآتي أعلاه: (لاَ إيمانَ لمن لا أمانةَ له!) بمعنىٰ نفي كمال الإيمان، لا أصل الإيمان، كما شرحه غير واحد من العلماء.

لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ!»[1] وهو معنىٰ كُلِّيٌّ من كليات الدين القطعية، إذ النصوص الشرعية فيه أكثر من أن تحصىٰ.

- **علىٰ مستوىٰ الوسائل الوظيفية**: «الدعوة والتربية والتكوين». جعلت الحركة في ورقاتها وأدبياتها الوظائفَ الثلاث المذكورة هي تخصصها العملي، الذي تتوسل به إلىٰ «إقامة الدين»، الذي هو هدفها الأول من العمل الإسلامي. ولكنَّ الحقيقة المؤسفة -كما بينا قبلُ- أنه لا وجود لكل ذلك علىٰ أرض الواقع؛ إلا أشكالًا لا تسمن ولا تغني من جوع! وقد بينا أسبابه؛ فلا حاجة للإعادة. وحجتنا القاطعة لدينا عندك -قَارِئَنَا الكريمَ- هي أن تزور بنفسك مقرات الحركة، وتخالط قطاعاتها المختلفة، ثم تتابع طبيعة الأنشطة التي أغرقت أغلب أطرها هنا وهناك، وما هم فيه منهمكون أغلبَ الأحوال والأوقات؛ لتشاهد الحقيقة مُعاينةً؛ فنرىٰ فَرْقَ ما بين المفعول والمقولِ!

- **علىٰ مستوىٰ الشورىٰ**: تزعم «حركة التوحيد والإصلاح» أنها نموذج متميز لتطبيق مفهوم «الشورىٰ» الإسلامي علىٰ المستوىٰ الداخلي للحركة. بل هناك من قادتها من يرىٰ أنها أمثل نموذج علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي كله! سواء في بناء الهياكل، أو في اتخاذ المواقف والقرارات. وأنا أزعم -كعضو سابق في المكتب التنفيذي، ومجلس الشورىٰ، والجمع العام، وبعض اللجان الوظيفية، وكمشرف سابق أيضًا علىٰ العمل الطلابي -أن ذلك كله مجرد وهم! بل الحقيقة المرة أن «الحركة» من أقدر التنظيمات الإسلامية علىٰ تطبيق «الديموقراطية» بمفهومها السياسوي! أعني: «الديموقراطية» بما هي قدرة سحرية خارقة علىٰ إيهام الجموع الهامة، والمؤسسات «الشورية»، أن أعضاءها قد شاركوا، وأنهم قد عَبرُوا، وأنهم قد رَأَوا، وما هم -في الواقع- قد رأوا شيئًا! أليس هذا بالعجبِ العُجابِ فعلًا؟! فَيلمسوهَا «شورىٰ» أو لِيسموهَا «ديموقراطية»! ولكنها في النهاية «شيء» عجيب! صورة وهمية، يطبخونها طبخًا، ويتقنونها صُنعًا، ويخرجونها علىٰ أبهىٰ ما يكون الإخراج، ثم يعرضونها علىٰ أجمل ما يلمع الماكياج! حتىٰ إن المشارك فيها لا يكاد يدرك أحقيقة هي أم خيال! وما رأيت في حياتي أشبه من شورىٰ

---

(١) رواه أحمد وابن حبان عن أنس مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

الإخوة -أو ديموقراطيتهم- بلعبة الخيط القِمارِيةِ، يَعقدهَا اللاعبُ عُقَدًا شتىٰ، ثم يطرحها علىٰ الأرض، بعضها فوق بعض، حتىٰ يظن الرائي ظنًا يشبه اليقين، أنها قد انعقدت علىٰ حِلَقٍ رابحة فعلًا، فإذا وضعتَ إصبعك داخلَها سَحَبَ اللاعبُ الخيطَ، وترك إصبعك علىٰ فراغ خَاسِرٍ، تخط الأسَىٰ في مهب الريح!

إن هذا الشيء المسمىٰ بـ (الشورىٰ) داخل الحركة إنما هو ضرب من «الميكيافيلية» التيارية، أعني أنها منهج قائم أساسًا علىٰ حفظ القيادة لصالح تيار معين، وجناح معين، بأي ثمن، وبأي وسيلة كانت! ولو بالْخُدَعِ الديموقراطية والحيل المطيعية! سواء في ذلك جموعها العامة، ومجالسها «الشورية» ومكتبها التنفيذي، وقطاعها الطلابي! ذلك ما عَايناهُ وشَهدناهُ، والله المستعان!

لقد صارت «حركة التوحيد والإصلاح» -في النهاية- كـ (يا أيها الناس)! لا اجتهاد لها في الدين ولا في الدعوة، ولا فضل لها في التربية ولا في التكوين. بل باتت لا يميزها عن سائر المجتمع سوىٰ أن نَاسَهَا في هيكل تنظيمي، يجمع الصالح والطالح، ككل تنظيمات الناس! وفهمها للدين علىٰ قدر فهم الناس! فلم يعد لها أي شيء ليس لدىٰ الناس؛ حتىٰ تعطيه للناس! بل كل ما عندها عندهم، وكل ما ليس عندهم ليس عندها! فلست أدري -بعد ذلك- ماذا بقي لها اليوم من معنىٰ «التوحيد»؟ وماذا يجري عليها الآن من مفهوم «الإصلاح»؟! هل الشكل أم المضمون؟! أم الأطلالُ والشجون؟ وهل الهياكلُ والقِبابُ؟ أم المَرَاتِبُ والألقاب؟ ألاَ وإنّ ذلكَ كُلَّهُ لَأَشبهُ ما يكونُ بأَطلالِ﴿قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ **[الحج: ٤٥]**.

هذا، وإن كنت آسىٰ بعد ذلك علىٰ فوات شيء؛ فإني آسىٰ علىٰ ضمور العمل الإسلامي بالمغرب؛ بضمور جناحين اثنين من أجنحته العديدة، وهما: جناح الشمال، وجناح الجنوب! صحيح أن جميع أجنحة العمل الوطنية كانت لها بركتها وكانت لها تخصصاتها. ولكنَّ الجناحين المذكورين تميزًا بما لم يوجد في غيرهما إلا قليلًا.

أما جناح الشمال الذي كانت تقوده الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير، فقد كان يسهم في صناعة بيئة روحانية عامة، وطاقات تربوية جادة، وأجواء ثقافية إيمانية

متميزة؛ بما جعل المدينة تكاد تصبح عاصمة روحية للشمال المغربي كله! حتىٰ إن بعضهم كان يسمي الجمعية بـ «جمعية الزواج»؛ لكثرة ما كان يُقْبِلُ الشباب من جهات أخرىٰ علىٰ اختيار زوجاتهم من مدينة القصر ونواحيها. وإنما كان ذلك بسبب الصلاح العام، والعفة الشاملة، التي كانت تطبع المنطقة بأسرها[1]؛ وذلك أن غالبية السكان بهذه المناطق هي معادن طيبة طاهرة في أصلها، إذ معظم أعراقها تنتمي إلىٰ مَدَاشِرِ الجبال (اجبالَة)، بالشمال المغربي. وهم من أهل قرآن وعلم، وتدين وصلاح، وعفة وشجاعة، وسابقة في المقاومة والجهاد. فكانت الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير تستفيد من هذا الرصيد المعدني والتارخي؛ فَتُخَرِّجُ من الناس خيارَهم. حتىٰ كانت المدينة تنعم بأن اجتماعي نادر، بسبب قلة الجريمة والفساد؛ بما غلب علىٰ الناس من خير وصلاح. ولكن ما أن ابتلىٰ الله الجمعية بآفة العمل الحزبي حتىٰ تسلطت عليها ريح عاد! فأتت علىٰ منجزات العمل الدعوي كله، خاصة وعامه! وانطلقت السياسةُ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ **[الأحقاف: ٢٥]** وذهب الطابع الروحي للمدينة أدراج الرياح!

وأما جناح الجنوب، فقد كانت منطقة الرشيدية/تافيلالت، بامتداداتها الجبلية والواحاتية؛ أعظم «مَحْمِيَّةٍ بَشريَّةٍ»، وأندر معدن إنساني رفيع، علىٰ الصعيد الوطني كله! «مَحْمِيَّة» كمحميات الأسود والعزلان! أقول ذلك ليس تعصبًا لها -وأنا ابن نخيلها ورمالها- ولكن اعتمادًا علىٰ شهادات متواترة مستفيضة، صدرت عن كثير من أهل العلم والخبرة، ممن زاروا المنطقة، أو احتكوا برجالها في العمل الإسلامي، أو العمل التعليمي، أو الإداري العام، هنا أو هناك. منطقة غارقة في الفقر والأشجان والأحزان، نعم؛ ومع ذلك ما تزال تصر علىٰ الحفاظ علىٰ مؤهلاتها الفطرية للخير! بما لا تجده عند غيرها إلا آحادًا. يتخرج الشباب من أصلابها مفطورين علىٰ خصلتين قلما تجتمعان في هذا الزمان: القوة والأمانة! وهما كمال شخصية الإنسان، علىٰ ما ذكره الله -جَلَّ عُلاَهُ- في القرآن،

---

(١) وقد ساعد علىٰ ذلك النشاطُ الدعوي العام، الذي كانت تمارسه جماعة التبليغ، كما سبقت الإشارة إليه آنفًا.

علىٰ لسان ابنة الرجل الصالح، في حق موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. فإذا خضعت لتكوين تربوي أو تعليمي جَادٍّ، تَخرجَ من أصلابها المعدنُ النفيس والعبقريةُ النادرة!

وكان أولىٰ بهذه المنطقة أن تبقىٰ «مَحْمِيَّةً» بحق، تشتغل بما بَرَّزَتْ فيه وأبدعت: «التربية والتكوين»، بعيدًا عن أدخنة السياسة الحزبية وظلماتها. فقد بقيت علىٰ عهدها هذا زمنًا، تنتج الرجالَ وتُصدِّرُ الأبطال؛ حتىٰ كادت أن تغطي التراب الوطني كله بالطاقات القوية والأطر الجادة! فنفع الله بها ما لم ينفع بغيرها.

ولكن! . . ويا لحسرتاه علىٰ «ولكن»! وصلت الأمطار الحامضية عبر الحزب السياسي إلىٰ بلاد النخيل أيضًا! فحملت عليها شعابُ وادي زيز وغريس بما لا قِبَلَ لها به! وارتمىٰ الشباب في مجاري العمل السياسي العفن، فانتقضت الطهارة، وتنجس العمل! وتورطت الطاقات في الخلافات القَبَلِيَّةِ وزادتها تأجيجًا واشتعالًا، وقد كانوا إلىٰ عهد قريب هم أهل الصلاح والإصلاح، إليهم المفزع عند أي نزاع. فصاروا طرفًا في كل شيء! وبدل أن يكونوا مرجعًا لحل الإشكال صاروا جزءًا من الإشكال! في منطقة لا تزال فيها الانتماءاتُ القبليةُ والعرقيةُ لها وزنها وحسابها! وما تزال القيادة محترمة للشيوخ وأهل الجاه الاجتماعي والقبلي والمادي. وكان أولىٰ أن يُحْسَبَ كُلُّ ذلك، وألا تدخل الحركة الإسلامية في شيء منه طرفًا البتة! ولكنها أخطأت خطأً جسيمًا؛ إذ رشحت من أفرادها الصغار من جاء ينافس الشيوخ الكبار! وكانت الزلة التي أهلكت الحرث والنسل! وأدت الدعوة الإسلامية بالمنطقة الثمن غاليًا! فقد حُوصِرَ أبناءُ الحركة دعويًا واجتماعيًا وسياسيًا، وصار كل قول يصدر من دعاتها متهمًا حتىٰ تثبت براءُته!

تَسيسَ العملُ الإسلامي بالإقليم المحافظ، فبدأ دين «الدعاة» هناك يَلِينُ أيضًا -علىٰ اصطلاح المُحدثين- وبدأ الانحراف السلوكي والتصوري بنخر القلوب والأجسام! رجالًا ونساءً؛ بما لم يخطر قط بالبال أن يقع مثلُه بين أولئك القوم، واقْتُحِمَتْ المحميةُ بالجرثوم السياسي الدخيل، فبدأ الفساد يدب إلىٰ كل شيء! وربما كان لدخول غير أبناء المنطقة إليها بهذه الفهوم بعضُ نصيب! فماذا بقي

لهم أن يقدموا للناس في بيئة لها حساسية ضد الاستغلال السياسي؛ بطبيعتها القبلية، وتعددها العرقي أشد من غيرها؟

لقد خسر العمل الإسلامي في الجنوب السجلماسي ما لم يخسره في أي منطقة أخرىٰ، لقد خسر الإنسان! والإنسانُ هو أغلىٰ ما ينتجه الإقليمُ علىٰ الإطلاق! فما وَجدتُ لضياع العمل التربوي هناك مثلًا أدَقَّ مما أورد الله تعالىٰ في حق مملكة سبأ! ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٦]. كذلك كان، والله المستعان!

فعسىٰ أن يمن الله بِغَيثٍ طَيِّبٍ يُنْبِتُ جيلًا جديدًا من المصلحين، فلا يأس من رحمة الله، وإنما الدين أمر الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾! [محمد: ٣٨].

تلك إذن خمسة أخطاء منهجية تتعلق بالحركة الإسلامية في صورتها التنظيمية الحديثة. وأما الخطأ المنهجي السادس فقد جعلناه بابًا مستقلًا لخصوصيته المنهجية والمرجعية. وهو استصنام المذهبية الحنبلية في التيار السلفي. وبيان ذلك هو كما يلي:

الباب الثاني
استصنام «المذهبية الحنبلية»
في التيار السلفي

وهو الخطأ المنهجي السادس للعمل الإسلامي بالمغرب، وقد جعلنا قضاياه في ثلاثة فصول، هي كالتالي:

الفصل الأول
تمهيد تاريخي

التيار السلفي بالمغرب كان علىٰ خير، ونطق بخير، واشتغل بخير. وما كان أحدٌ أولىٰ منه بإصلاح البلاد والعباد لو استمر علىٰ النهج القويم. ولكنه هو أيضًا أنتج -في مرحلة انحرافه- عقاربَ أشد خضرة من عقارب الحركة الإسلامية، وأشد لَسْعًا! فشدة خضرته؛ هي بما كان أشبه من غيره بالعلم وأهله! وشدة لسعه؛ هي بما ألحق بالإسلام والمسلمين من الأذىٰ علىٰ علم! وإليك البيان:

كانت «الدعوة السلفية» هي أول ما اشتغل بالمغرب من حركات الإصلاح الديني، وذلك بالعمل علىٰ إخراج أجيال الصحوة الإسلامية المعاصرة. فقد انطلقت نداءتُها التحريرية منذ العهد الاستعماري البائد، حيث ظهرت دعوتها مع علماء مغاربة كبار، من أمثال الشيخ أبي شعيب الدكالي، وشيخ الإسلام ابن العربي العلوي، رحمهما الله، ومن تتلمذ علىٰ أيديهما. ثم تطورت مع مجيء العلامة المجدد الدكتور تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد الزمزمي آل ابن الصديق، ومن تتلمذ علىٰ أيديهما أيضًا. وقد بدأ الدكتور الهلالي رحمه الله نشاطه منذ الفترة الاستعمارية، واستمر إلىٰ ما بعدها زمنًا، حتىٰ توفي بالدار البيضاء رحمة الله عليه، في شهر شوال من عام: ١٤٠٧هـ، عن سن تناهز المائة عام، بالعد الهجري. وكان قد أصدر مجلة «لسان الدين» بمدينة تطوان سنة: ١٩٤٦م. كما سافر إلىٰ أروبا، ثم إلىٰ المشرق -قبل ذلك وبعد ذلك- وجال عدة أقطار من العالم الإسلامي، داعيًا إلىٰ الله معلِّمًا ومجددًا. ثم عاد ليتفرغ للعمل

الدعوي بالمغرب، طيلة النصف الثاني من القرنين الرابع عشر الهجري، والعشرين الميلادي(١).

ويمكن أن نقول: إن الدكتور تقي الدين الهلالي رحمه الله هو المؤسس الحقيقي للمدرسة السلفية بالمغرب في العصر الحاضر؛ وذلك بما خلَّف من تلاميذ، حملوا راية التجديد بعده، وإن لم يبلغ أحدهم -مع الأسف- مبلغه من العلم ولا حتىٰ قاربه! ثم بما ترك من كَمٍّ هائل من الكتب والمصنفات في مختلف العلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية، والفكرية، ومن الترجمات من اللغات العالمية وإليها. كان ذا عبقرية فذة نادرة، علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي كله! وقد اشتهر من العلماء المغاربة المتأثرين بمنهجه الشيخ محمد بو خبزة التطواني -وهو أسنهم وأعلمهم- بارك الله في عمره. والشيخ محمد زحل، والشيخ الدكتور القاضي برهون، والشيخ محمد الصمدي، وآخرون.

والحق أن الدعوة السلفية -في أول عهدها- كانت حركة مباركة. فقد أسهمت إسهامًا بالغًا في عودة الناس إلىٰ ممارسة الشعائر الدينية، وخاصة الصلوات، بعدما كانت المساجد خاوية علىٰ عروشها، لا تكاد تجد فيها إلا الرجل والرجلين من الشيوخ والعجزة. فكانت كلمات المصلحين السلفيين توقظ المشاعر الدينية، وتغرس الوعي الديني لدىٰ الشباب والكهول. كما أبلت البلاء الحسن في تصحيح العقائد والشرائع، من توحيد وعبادات. وكان لها الفضل الأكبر في محاربة المظاهر الشركية، من الذبح لغير الله والاستغاثة بغير الله والتوعية بخطورة ذلك كله. وكذا محاربة مظاهر الشعوذة والخرافة والدجل، التي خدعت الناس باسم «الولاية الصوفية» و«المشيخة الطرقية»، زمنًا طويلًا. والتصوف السني الأصيل منها براء! ففي ظروف الجهل، وانقطاع الناس عن طلب العلم الشرعي من مصادره الأصلية؛ تقمص عددٌ من الدجاجلة شخصياتِ «الأولياء الصالحين» وتلبسوا بما لم يُعْطَوْهُ من الصفات، وخدعوا العامة بما أمدتهم الشياطينُ من مخرقات، فعرضوها علىٰ أنها كرامات! وما هي بكرامات، إن هي إلا إفكٌ كبير، ودجلٌ، مُبِيرٌ..! فحررت السلفيةُ أغلبَ المغاربة من هذا الجهل العظيم! كما أنها

---

(١) ن. كتابه «الدعوة إلىٰ الله في أقطار مختلفة».

أسهمت في تحقيق النصوص الحديثية، وتنبيه العامة والخاصة من المتدينين وطلبة العلم إلىٰ الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وضرورة التمييز بينها في التشريع والاستدلال. بعدما كان الناس لا يشتغلون بأي شيء من ذلك؛ فعبدوا الله تعالىٰ بالجهل والخرافة زمنًا طويلًا.

وفي مرحلة السبعينات من القرن الميلادي الماضي كان بعض علماء المشرق يفدون إلىٰ المغرب، من أمثال الشيخ أبي بكر الجزائري، والشيخ حماد الأنصاري، والشيخ محمد عبد الوهاب البنا، والشيخ عبد المحسن العباد، والشيخ محمد الحسن الكَسَلِي السوداني، والعلامة محمد ناصر الدين الألباني، وغيرهم، رحمة الله عليهم جميعًا؛ فكان لهم أكبر الأثر علىٰ كثير من المغاربة في تصحيح الوعي الديني عقيدةً وشريعةً.

إلا أن الدعوة السلفية بالمغرب -رغم إيجابياتها الكثيرة- لم تسلم من اختلال موازين ثلاثة، الأمر الذي تولدت عنه أخطاء منهجية -سيأتي تفصيلها بحول الله- أدت إلىٰ تمزقها وذهاب ريحها، إلا ما شاء الله. أما الموازين الثلاثة التي اختلت لها فهي:

-**الأول**: اختلال ميزان الحكمة، حيث لم تراع مقتضيات البيئة المغربية وطبيعة أدْوَائِها، ما تطيقه من أمور الدعوة والإصلاح وما لا تطيقه، وما كان حقه التقديم من ذلك، وما كان حقه التأخير. ولم تستطع التكيف مع طبيعة المغرب المذهبية والسياسية. بل إنها حاولت أن تنقل التجربة الدعوية الحنبلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بصورة حرفية، من دون مراجعة ولا اجتهاد، سواء فيما تعلق ببعض أحكامها الشرعية؛ أو فيما تعلق بمنهج تحقيق مناطها بأرض الواقع المغربي. وذلك كان من أكبر زلاتها المنهجية!

- **الثاني**: اختلال ميزان الإنصاف، حيث إنها ظلمت كثيرًا من خصومها من أهل العلم والصلاح، من ذوي الاجتهادات المخالفة، ولم تعترف لهم بفضيلة البتة! كما أنها صادرت المذاهب الفقهية جميعًا عدا المذهب الحنبلي! وهاجمت التصوف بلا تمييز بين أهله ومدارسه. ولم تحترم مراتب الأحكام علىٰ البدع إلا قليلًا.

- **الثالث**: اختلال ميزان الحِلْم، وذلك بما مارسته من شدة مفرطة في النقد، والهجوم علىٰ كثير من علماء المسلمين، ممن ابتلاهم الله بالابتداع -الحقيقي أو الإضافي- في العقائد والعبادات، أو حتىٰ ممن خالفهم في الاجتهاد الفقهي المحض، منهم ومن غيرهم. بل إن بعض دعاتها المتأخرين قد تورطوا في قاموس من الشتائم والشباب، مما لا يليق بالمسلم العادي أن يتلفظ به؛ بله العالم الداعية! وقد كنتُ يومًا بمجلس أحد مشايخهم بالمغرب، فلم يلبث أن وقع في أحد العلماء الكبار -من زعماء «الإخوان المسلمين»- بعبارات نابية ساقطة![1] أخجلتْ كلَّ من كان في المجلس، بما في ذلك تلامذة الشيخ أنفسهم! و(لاَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَّانًا!)[2] لو كانوا يعلمون! فالتفتُّ إلىٰ من رافقوني آنئذ إلىٰ مجلس ذلك الشيخ، وقد كانوا يرجون أن تجتمع عليه كلمة الدعوة بالمغرب، فقلتُ لهم: «إن هذا الشيخ لن يستطيع جمع شيء، ولا حتىٰ الذباب!» وكذلك كان! فلم يلبث أن تفرق الناس من حوله شَذَّرَ مَذَر..!

لقد خسرت الدعوة السلفية في امتحان الأخلاق مع الأسف؛ فأضاعت بذلك علىٰ الأمة خيرًا كثيرًا! ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]. ذلك ما لم يتزودوا منه إلا قليلًا!

وعليه؛ فقد كان لهذا وذاك -مما ذكرنا من موازين مختلة- أثَرٌ بالغ علىٰ انحراف التيار السلفي، وانزلاقه إلىٰ اتجاهات أخرىٰ، وُظِّفَتْ أحيانًا لضرب الإسلام نفسه! فمع أواخر القرن العشرين الميلادي لم يلبث جيل الخلف من المدرسة السلفية أن تغيرت أحواله، واضطرب اتجاهه؛ بسبب تعرضه لفتن مذهبية، وأخرىٰ سياسية؛ فشَطَّتْ به رياح الأهواء إلىٰ ضَرْبٍ من الانحراف المنهجي، والتعصب المذهبي، و«استصنام» المشايخ والزعماء؛ مما أدىٰ -فيما

---

(١) لقد كانت الحملة الظالمة التي تورط فيها بعض دعاة السلفية علىٰ الإمام حسن البنا والأستاذ سيد قطب، تقبلهما الله في الشهداء، وكذا الدكتور يوسف القرضاوي، فيها من الغلو، وسوء الأخلاق؛ ما يؤكد ما بلغني من أحد أهل العلم بالمشرق من التوظيف السياسي الخفي والإشعال المخابراتي -بصورة غير مباشرة- لنار تلك الفتنة؛ وذلك لأسباب شتىٰ أغلبها سياسي محض، ولا علاقة لها بالعلم إلا تبعًا.

(٢) رواه الترمذي مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

بعد- إلىٰ أن تكونت منه تياراتٌ وفِرَقٌ شتىٰ، كان لها أكبر الأثر في توتر الساحة الدينية بالمغرب، وإرباك مسيرة الصحوة الإسلامية إرباكًا شديدًا. فتغير مفهوم «السلفية» من معناه الإصلاحي الإيجابي إلىٰ معانٍ أخرىٰ سلبية، لبَّسَها لنفسه بنفسه، ثم أججت ضلالها المفهومي كثيرٌ من وسائل الإعلام المغرض؛ فكان من أمره ما كان. وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد كان انطلاق الحركة الإسلامية بالمغرب متداخلًا بالفكر السلفي ومتلبسًا به. وذلك منذ أواخر الستينات وبداية السبعينات من القرن الميلادي الماضي. حيث كانت التنظيمات الإسلامية الناشئة آنئذ، تستفيد من التأطير العلمي لرموز الحركة السلفية بالمغرب، من أمثال الدكتور تقي الدين الهلالي، والعلامة محمد الزمزمي وغيرهما، رحمهما الله. وذلك بوعي تام من الطرفين وإرادة كاملة. حيث كان بدء العمل الإسلامي بالمغرب في تلك اللحظة يطبعه نوع من التعاون والتآلف بين جميع مكوناته، وقلما يدخله الاختلاف والشنآن[1]. وذلك بسبب الحاجة المرحلية للتوحد الفكري، ضد موجه الإلحاد الماركسية، التي كانت تجتاح المغرب آنئذ.

ومن هنا؛ لم يكن ثمة تمايز بين الإسلاميين، ولا أي اختلاف جذري في العمل الدعوي والتربوي. بل كان هناك نوع من التكامل والتعاون. فما تنكره بعض التيارات السلفية اليوم علىٰ الحركات الإسلامية من «بدعية» العمل التنظيمي، كانت هي أيضًا تمارسه في تلك المرحلة وتقره، من خلال تعاون رموزها مع عدد من التنظيمات السرية والعلنية. وقد استجاب الدكتور تقي الدين الهلالي لطلب الإمام حسن البنا رحمة الله عليهما، في مراسلة تاريخية لما طلب منه «البنا» ترشيح أحد المغاربة؛ ليكون مراسلًا لجريدة «الإخوان المسلمين»، التي كان يصدرها في مصر، فأجابه تقي الدين الهلالي برسالة ترحيبية، ملبيًا فيها طلبه، ومقترحًا نفسه ذاتها مراسلًا لجريدته. وقد وشحها ببيت شعري نص:

لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَا هَا أَنَا ذا مُنطلقٌ إلَيْكَا!

---

(١) اللهم إلا ما كان من حركة الشبيبة الإسلامية بقيادة الأستاذ عبد الكريم مطيع، التي خاضت في شيء من ذلك، لكنها لم تجد مستجيبًا من لدن الجمعيات الإسلامية. ولم تزل كذلك إلىٰ أن تمزق تنظيمها بسبب انحرافها المنهجي.

وكان الدكتور آنئذ يصدر هو أيضًا مجلة «لسان الدين» بتطوان. وكان علىٰ معرفة جيدة بالبنَّا وبحركته. وقد كان الإمام -رحمه الله وتقبله في الشهداء- هو أول من أنشأ جماعة ذات بناء تنظيمي حديث، علىٰ شاكلة التنظيمات السياسية المعاصرة.

ثم إن الدكتور الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ صار بعد ذلك علىٰ صلة غير مباشرة بتنظيم الشبيبة الإسلامية، من خلال تربية بعض رموزها العلمية وتوجيههم. وكان -كما بلغني- يسأل عن أحوال الحركة وما قطعته من مراحل، وعن الكتب بالمقررة في التربية والتكوين.

وما أن انفجرت جماعة «الشبيبة» في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات؛ حتىٰ بدأ التيار السلفي بالمغرب يتبلور في صورة جديدة؛ متأثرًا في ذلك بتطور أصوله المشرقية؛ بما اقتضته مرحلة ما بعد السبعينات من مواجهة المد الشيعي -بعد قيام الثورة الإيرانية سنة: ١٩٧٩م- الذي نشط علىٰ المستوىٰ العالمي، بما تبناه من فكرة تصدير الثورة.

ففي هذه الظروف، وبعد وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ مباشرة، ظهرت علىٰ الساحة المغربية رموز سلفية جديدة، كان بعضها يشتغل تحت قيادته ورعايته. ولكنها ما أن استلمت زمام الزعامة السلفية حتىٰ خطَّت لنفسها منهجًا جديدًا، مخالفًا في كثير من سماته لمنهج الدكتور تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ. وشيئًا فشيئًا، ومع تطور الأحداث العالمية، وما صاحبها من نشوء ما سُمي بـ «الجهاد الأفغاني»، وظهور «الأفغان العرب»، ثم ازدياد حجم التأثير الخليجي في الفكر السلفي بالمغرب؛ ظهرت الاتجاهات السلفية في صورتها الأخيرة، التي صارت تصنع جزءًا من الصورة لا يستهان به، في واقع العمل الإسلامي بالمغرب. وهكذا تطورت الاتجاهات السلفية من مجرد تيار دعوي تجديدي، تتلخص وظيفته في محاربة البدع وإحياء السنن، في العقائد والعبادات؛ إلىٰ فاعل سياسي كبير، يُوَظَّفُ سلبًا وإيجابًا علىٰ المستوىٰ العالمي والمحلي؛ بما جعله يتعرض للزلازل السياسية، ويتمزق هو أيضًا إلىٰ تيارات وفرق وأحلاف، تمتد من «السلفية العلمية» إلىٰ «السلفية الإخوانية» إلىٰ «السلفية التكفيرية القتالية»! وداخل كل فرقة

من هذه الفِرَقِ تَتَنَاسَلُ فِرَقٌ أخرىٰ وأحلافٌ؛ حتىٰ إنك لتكاد تجد مفهوم «الجماعة» يُخْتَزَلُ في خمسة أفراد أو ثلاثة! حتىٰ يتشخص -بعد ذلك- في فرد واحد، يرفع عقيرته مناديًا: (أنا الفِرْقَةُ الناجية)!

وهكذا أصيب التيار السلفي في عمومه -إلا من رحم الله[1]- بما أصيبت به الحركة الإسلامية الحزبية، من «استصنام منهجي»، جعله -في بعض تجلياته- أداة للتخريب ووسيلة للهدم! من بعد ما عاش مرحلة مباركة من الإصلاح والتجديد، والبناء السديد. ثم صار إلىٰ نوع من الجمود والتحجر في فهم الكتاب والسنة، وإلىٰ نوع من تضخم «الشكلانية» علىٰ حساب الحقائق الإيمانية، والمقاصد الشرعية. فصار محجوبًا عن التأثير الحقيقي في عموم الناس؛ بسبب قيامه علىٰ العنب والغلو في الدين، دون التوسط والاعتدال. فكان بعض رموزه بذلك حُجُبًا عن الله؛ بما خَلَعَ عليها الأتباعُ -من العامة والرعاع- من استصنام شخصاني وعصمة لا شعورية. أضف إلىٰ ذلك استصنامه أيضًا للرأي الفقهي؛ بتداوله لكثير من الأحكام الشرعية، ذات الطابع الاجتهادي الصرف، وكثير من المقولات الفقهية القائمة -من الناحية المرجعية- علىٰ المذهب الحنبلي بشكل واضح! وتقديمها لعامة المتدينين علىٰ أنها هي «الكتاب والسنة»! وأنها حقائق قطعية لا مجال فيها للاجتهاد! مما نقلها في أذهانهم من رتبة الصواب إلىٰ رتبة الحق، كما نقل نواقضَها من درجة الخطأ النسبي إلىٰ دركة الباطل المطلق! ثم نتج عن ذلك أن جُعِلَ أصحابُها القائلون بها في قفص الاتهام، وَصُنِّفُوا ضمن خَانَةٍ تتردد بين الكفر والضلال! ذلك أن بعض رواد هذا التيار قد أدخلوا منطق «التبديع» و«التضليل» إلىٰ مجالٍ الأصلُ فيه أن يُتَنَازَلَ بمنطق «التخطيء» و«التصويب»؛ فبدل أن يتعاملوا مع الناس بميزان الخطأ الذي يُرْجَىٰ لصاحبه -علىٰ الأقل- أجرٌ واحدٌ؛ تعاملوا معهم بميزان «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار!» وكان ذلك

---

(١) ليست التيارات السلفية كلها علىٰ وِزَانٍ واحد. فقد تميزت مدرسة العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللهُ بتوازن واعتدال في الغالب؛ بسبب منهجه الحكيم في الرجوع إلىٰ موازين العلم، وذلك بنزاهة نادرة، دون تأثر بالأهواء السياسية والإقليمية، التي عصفت ببعض الشخصيات والمدارس السلفية. وربما تكلم بعضهم باسمه وهو منهم براء. كما سيأتي بيانه في هامش لاحق، بحول الله.

كله من أشد أنواع «الاستصنام المنهجي» الواقع في صف العمل الإسلامي المعاصر!

وهذا كله إنما حصل بسبب الوقوع في مجموعة من الاختلالات التصورية والانحرافات السلوكية، نفصلها فيما يلي:

الفصل الثاني
استيراد المذهبية الحنبلية
باسم «الكتاب والسنة»

لعل أول صخرة اصطدم بها الفكر السلفي الدخيل هي صخرة المذهبية. فقد كان من أخطائه المنهجية الكبرىٰ أنه استهان بأمر الخصوصيات المذهبية للمغرب؛ فأدىٰ ذلك إلىٰ فشل مشروعه الإصلاحي، ولعل بعض من رَوَّجُوا له بالبلاد -بعد وفاة الدكتور الهلالي ﵀- لا خبرة لهم بالخلفية المذهبية التي تضمنتها مقولاته؛ نظرًا لعدم الاختصاص بالفقه وأصوله، وبعلم الخلاف العالي من ناحية، ونظرًا لأن الرسالة السلفية -من ناحية أخرىٰ- قد ألقيت إليهم علىٰ أنها هي العمي بـ «الكتاب والسنة». فَدُلِّسَ عليهم كثيرٌ من الأحكام الفقهية الحنبلية، وتلقوا ذلك بنوع من السذاجة، دون الدخول في تدقيق تلك المقولات، وتحقيق مدىٰ قوة علاقتها بالكتاب والسنة، بعرضها علىٰ موازين القواعد الفقهية والأصولية، دلالةً واستدلالًا. ثم النظر في اختلاف العلماء من قبلُ، واستعراض أدلتهم كُلًا علىٰ حدة؛ لمعرفة الراجح من المرجوح. وقد تجلت حنبلية السلفية الدخيلة في أمرين: الأول فقهي جزئي، والثاني منهجي أصولي.

فالأول: الذي هو التجلي الفقهي للسلفية متعلق بمجموعة من الأحكام الفقهية، التي قال بها الحنابلة قديمًا، وجعلوها من اختياراتهم، فصُدِّرَتْ إلينا علىٰ أنها

ضرب من التجديد للدين ومحاربة للبدع، كالقول بوجوب النقاب على النساء[1]، وعدم جواز مس اللحية بشيء من القص والتهذيب مهما طالت[2]، ووجوب الخروج من الصلاة بتسليمتين لا بتسليمة واحدة، وبطلان القول بالندب في ذلك[3]، كما هو عند المالكية وغيرهم، وكذا القول بتكفير تارك الصلاة بناء على ظواهر النصوص[4]، وتبديع القول بالقنوت في صلاة الصبح، والتشنيع على المغاربة في ذلك زمنًا طويلًا! مع أن أصله ثابت في السنة الصحيحة عند الشيخين وغيرهما، بل هو متواتر مقطوع به، وإنما الخلاف هو في نسخه أو عدمه، وفي على ترك رسول الله ﷺ له، أهو نسخ أم هو لمجرد بيان عدم وجوبه؟ كما حدث في صلاة التراويح مثلًا[5] ... الخ. هذا على سبيل المثال، وإلا فالفروع

---

(١) هي رواية عن أحمد، ومشهور مذهبه موافقة الجمهور في استثناء الوجه والكفين من عورة المرأة، لكن متأخري الحنابلة أخذوا بالرواية الأضعف فصارت تقليدًا راسخًا، كان سببًا في معارك علمية وقعت بين بعضهم وبين العلامة الألباني رحمه الله لما فند مذهبهم في كتابه: «الرد المفحم». وهو كتاب فيه من قوة الاستدلال ما يدل على تعمق الشيخ في الدراسات الأصولية.

(٢) الفقهاء الأربعة على جواز قص ما زاد عن القبضة من اللحية؛ للآثار الواردة في ذلك. وغيرهم على وجوبه، وقال أحمد: الأولى عدم الأخذ منها مطلقًا. فجعل المتأخرون من أتباعه اختيارَه هذا على الوجوب، فحرموا الأخذ منها مطلقًا. وهو مخالف لمشهور فقهاء الصحابة، الذين هم أَقْعَدُ بفهم السنة ممن جاء بعدهم من الخلف. وسيأتي لذلك بيان بعد قليل بحول الله.

(٣) كان ذلك قبل أن يشتهر تصحيح الألباني رحمه الله لحديث التسليمة الواحدة. ن. صفة صلاة النبي ﷺ: ١٦٣.

(٤) وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله، والجمهور على خلافه.

(٥) وقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ من بعده بين القول بنسخه والقول ببقائه سنة جارية. ومضى على العمل به غير واحد من الصحابة بعد وفاته ﷺ، منهم عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة رضوان الله عليهم أجمعين. فعن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إني لأقربكم صلاة برسول الله ﷺ وكان أبو هريرة يقنت في الركعة الآخرة من صلاة العشاء الآخرة وصلاة الصبح، بعدما يقول «سمع الله لمن حمده»، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار). (رواه أحمد، وابن حبان. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين). كما اختلفوا أهو قبل الركوع أم بعده؟ وثبتت السنة الصحيحة بذلك جميعًا. وقد حكى الإمام الشوكاني الخلاف في القنوت على خمسة مذاهب، وسرد أحاديث كل فريق ثم رجح في النهاية مشروعيته. وقال في نيل الأوطار: (وَأَما القنوتُ قَبْلَ الركوع فَهوَ ثابتٌ عِندَ النسائيّ مِنْ حَديثِ أبي بْنَ كَعْبٍ). فعنه رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ كان يوترُ فَيَقنتُ قبلَ الركوعِ). رواه النسائيُّ وابن ماجه. وصححه الألباني في الإرواء وفي تعليقه على سنن ابن ماجه =

الحنبلية المنقولة إلينا عبر الفكر السلفي كثيرة جدًا، ليس هذا مجال تفصيلها.

هذا، وقد خَرَّجَ بعضُ المعاصرين منهم أحاكمًا فقهية -في بعض النوازل الجديدة- علىٰ أصول مذهبهم وقواعده، من مثل القول بتحريم التصوير «الفوتوغرافي» بشتىٰ أنواعه! اعتمادًا علىٰ مطلق المنع من التصوير، بمفهومه القديم الوارد في الحديث، دون النظر إلىٰ علل المنع؛ فوقعوا في أَقْيِسَةٍ باطلةٍ؛ لوجود عدة فوارق بين الأصل والفرع، ولعدم تحقيق مناط النصوص بما يناسب النازلة الجديدة بصورة سليمة[1].

وقد كثر النقل عن أئمة الحنابلة -رحمهم الله- بدءًا بالإمام أحمد، ثم الإمام ابن الجوزي، وابن قدامة المقدسي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الرباني الإمام ابن القيم، وانتهاءً بشيوخ العصر منهم، كالعلامة ابن باز، والشيخ العثيمين رحمهما الله، وسائر المنتسبين لمؤسسة «هيئة كبار العلماء» السعودية. وجرت

= والنسائي. وقد صحح الألباني أحاديث القنوت في صلاة الصبح عن النبي ﷺ وعن عدد من الصحابة والتابعين استمرارًا بعد وفاته ﷺ؛ مما يدل علىٰ عدم النسخ، وبقاء مشروعيته. ن. إرواء الغليل: ٢/ ١٦٠-١٦٦.

(١) كل الأحاديث الواردة في منع التصوير راجعة إلىٰ إحدىٰ علتين: إما المضاهاة وإما الوثنية، وإما هما معًا؛ فتكون العلة مفردة ومركبة. من مثل قوله ﷺ فيما ترويه عائشة رضي الله عنها قالت: (قَدِمَ رسول اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي بِقرام فِيهِ تَمَاثِيلُ فَلَمَّا رَآهُ هَتَكَهُ وتَلَوَّنَ وَجههُ قَال: «**يا عائشةُ! أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ!**») متفق عليه. وعَنها رضي اللهم عنها (نَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ فَلَمَّا رَآهَا رسول اللَّهِ ﷺ قَامَ عَلىٰ الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ فَقُلْتُ: يَا رسول اللَّهِ أَتُوبُ إِلىٰ اللَّهِ وَإِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ مَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رسول اللَّهِ ﷺ: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَة؟ قُلْتُ اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا فَقَالَ رسول اللَّهِ ﷺ إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ!**» وَقَالَ: «**إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الملائكة!**») متفق عليه.

ولا شيء من ذلك متحقق في نوازل التصوير الفوتوغرافي وما شابهه، كالتصوير بالفيديو أو نحوه؛ لأن هذا إنما هو نَقْلٌ للصورة، وليس تصويرًا ي الحقيقة. وإنما التصوير ما كان فيه محاولة إبداع بشري. والأولىٰ أن تقاس الصور الفوتوغرافية علىٰ صور المرآة؛ إذ كلاهما يعكس الصور التي خلقها الله -جل جلاله- علىٰ أصل خلقتها الفطرية، بلا مضاهاة ولا تحوير. وأما الوثنية فلا علاقة لها بالصورة من حيث هي صورة، ولكنها متعلقة بالمعتقدات الفاسدة أنىٰ كانت، ولو تعلقت بشجر أو حجر، أو أي شيء مما لا روح له. والمشكلة في نهاية المطاف راجعة أساسًا إلىٰ قضية المصطلح؛ إذ ما كان ينبغي أن يسمىٰ مثل هذا (تصويرًا) بل كان اولىٰ أن يوضع له اسم غيره؛ لأن المصوِّر إنما هو الله جل جلاله. وهو اسم من الأسماء الحسنىٰ.

ألقابهم وكناهم علىٰ ألسنة المنتسبين للتيار السلفي بالمغرب؛ حتىٰ رسخت لدىٰ كثير منهم عبارة (قال «شيخ الإسلام) دون ذكر ماذا يقصدون بهذا اللقب؛ لظنهم أن المعنىٰ واضح؛ وظنهم أن شخصًا واحدًا هو من اشتهر به! وإنما هم يقصدون شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهو صحيح[1]، ولكن الإطلاق إنما هو عند متأخري الحنابلة فقط؛ ولذلك وجب التقييد! ولكنهم لا ينتبهون إلىٰ أنهم في المغرب المالكي، وأن المغاربة هم أيضًا عندهم من اشتهر بهذا اللقب! كالإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت: ٤٦٣ هـ)، والإمام أبي الوليد الباجي (ت: ٤٧٤هـ).

ثم اشتهر به من المتأخرين: شيخ الإسلام ابن العربي العلوي السجلماسي، المتوفىٰ في القرن الماضي. وممن اشتهر بهذا اللقب من غير المذهب قديمًا: المحدث الحافظ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (ت: ٤٥٠ هـ)، وأبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي الحنبلي (ت: ٤٨١هـ)، وسراج الدين البلقيني الشافعي: (ت ٨٠٥ هـ)، والقاضي شرف الدين يحيىٰ بن محمد المناوي الشافعي (٨٧١هـ)، والقاضي أبو يحيىٰ زكريا بن محمد الأنصاري المصري الشافعي (ت: ٩٢٨هـ)، وغيرهم كثير. وأما من وُصِفَ به في غير اشتهار فأكثر من أن يُحصَىٰ.

كما الدولة العثمانية بتركيا أيضًا كانت تعتمد هذا اللقب؛ وذلك لتمييز منصب رئيس العلماء بـ «دار الحكمة» في اسطنبول، علىٰ غرار «شيخ الأزهر» بمصر. ومن أشهر شيوخ الإسلام بالدولة العثمانية: شيخ الإسلام العلامة مصطفىٰ صبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) هو شيخ الإسلام بحق، العالم المجدد، والفقيه المجتهد، العابد الزاهد، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحراني الدمشقي، المشهور بابن تيمية، والمتوفىٰ سنة: ٧٢٨هـ. قَدَّسَ الله سِرَّهُ، ونور قبره! امتحن وابتلىٰ، فسجن عدة مرات؛ بتحريض من جهلة الطرقية، وبعض علماء السوء، حتىٰ إن أحدهم باء بتكفيره ظلمًا وعدوانًا! ثم كفَّر كل من أطلق عليه لقب «شيخ الإسلام»! كذا! وهذا من أعظم الباطل والبهتان! وقد أورد صاحب «كشف الظنون» عنوان مُصَنَّفٍ للشيخ الإمام حافظ الشام، الشمس بن ناصر الدين، المتوفىٰ سنة ٨٤٢ هـ، يبطل فيه تلك الدعوىٰ، وهو كتاب: (الرد الوافر علىٰ من زعم أن من أطلق علىٰ ابن تيمية «شيخ الإسلام» كافر)؛ عندما صرح بذلك أحدهم في مجلسه، في مسألة الطلاق المشهورة. ن. كشف الظنون لحاجي خليفة: ٨٣٨/١.

وغير ما مرة سمعت قولهم: (قال إمام أهل السنة والجماعة!) دون تعيين المعنىٰ؛ لظنهم أنما هو شخص واحد أيضًا من اتصف بهذا الوصف من دون العالمين! وإنما يقصدون به الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكأنَّ مالكًا بن أنس (ت: ١٧٩هـ) -وقد عاش قبله بأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان- لم يكن كذلك! أو كأنه كان إمام طائفة أخرىٰ، غير «أهل السنة والجماعة» وقد عُلِمَ تاريخيًا أن مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو المؤسس الأول -علىٰ المستوىٰ المذهبي الاجتماعي- لمدرسة «أهل السنة والجماعة» فقهًا وعقيدةً! وكل الأئمة الأربعة هم أئمة «أهل السنة والجماعة»، وما كتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية عنا ببعيد! ولكن الهوىٰ الحنبلي المدسوس في الفكر السلفي الوافد، قد قصر ذلك الوصف علىٰ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ومعلوم ما في ذلك من التقوية لآراء الحنابلة الفقهية إذا اختلف الناس! فردد بعض المغاربة ذلك؛ بسبب الجهل حينًا، وبسبب المجاملة لمصادر التمويل في الخليج أحيانًا أخرىٰ. كل ذلك والقوم يدعون محاربة المذهبية![1]

وقد بُدِّعَتِ الخلاصاتُ الفقهية المالكية بالجملة وبلا تمييز! وصارت أقوال المغاربة باطلة حتىٰ يثبت بصحتها الدليل؛ بينما أقوالهم هم صحيحة حتىٰ يثبت ببطلانها الدليل!

ومن أغرب الأشياء التي صادفتها أكثر من مرة في بعض مصنفاتهم عند تخريجهم للأحاديث أنهم -مثلًا- يعزون الحديث إلىٰ مسند أحمد -إن كان في المسند- ثم إلىٰ صحيح البخاري أو مسلم أو هما معًا، ثم إلىٰ كتب السنن الأربعة مثلًا، ويكون الحديث المقصود بالتخريج والتوثيق قد سبق مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ إخراجه في الموطأ، ولكنهم يُغْفِلُونَ ذلك إغفالًا! والأمر يتكرر في غير ما مصنف ورسالة! فإن كان القصد الاقتصار علىٰ المصادر الصحاح فالعزو إلىٰ البخاري كافٍ. والموطأ أصح من المسند بالإجماع! وأما إن كان القصد الترتيب التاريخي للمصادر فالموطأ أقدم من المسند. فلم يبق إذن إلا التأثر اللا شعوري أو الشعوري بالنزعة الحنبلية.

(١) قد بينا بطلان ذلك بما فيه الكفاية في كتابنا: (مفهوم العالِمية).

والثاني: هو التجلي الأصولي المنهجي، وذلك هو المسمىٰ عند الأصوليين بـ «الاجتهاد في إطار المذهب». وهو من أدق الأمور المذهبية؛ حيث لا يستطيع اكتشافها إلا أهل الاختصاص من أهل العلم. وهذا ينسحب علىٰ كثير من الفتاوىٰ المعاصرة التي قال بها بعض علماء التيار السلفي. وقد ذكرت غير ما مرة عند بعض الحوارات العلمية، مع بعض إخواننا منهم، أن هذه المسألة أو تلك، إنما هي تخريجة حنبلية، وليست نصًا من الكتاب والسنة، بل هي ضرب من الفهم لهما؛ فَيُعترضُ علينا بأن القائل بها إنما هو فلان أو علان من مشاهير العلماء، وهو عندهم ليس متمذهبًا أصلًا، لا بالحنبلية ولا بغيرها؛ بدعوىٰ أنه خالف أحمد بن حنبل رحمه الله في كذا وكذا. وهذا من أكبر الجهل وأعظمه! فإن هذه الدعوىٰ باطلة علميًا وواقعيًا؛ لأن المذهبية ليست بالضرورة تقليدًا لإمام المذهب في الفروع، بل قد تكون مجرد تقليد له في الأصول، مع إمكان مخالفته في الفروع. وهذا هو «الاجتهاد في إطار المذهب». وأما المجتهد في الأصول والفروع معًا فهو «المجتهد المطلق» حقًا. وهو الذي اتخذ لنفسه منهجًا أصوليًا غير مسبوق، وترتيبًا استدلاليًا خاصًا به. وهو من الندرة بمكان! بل هو في تاريخ الأمة صنف معدود! وهم أرباب المذاهب البائدة والباقية.

وقد خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الإمامَ الأعظم أبا حنيفة النعمان، ومع ذلك صنفهما العلماء ضمن طبقات الحنفية. وكذلك كان الأمر مع الإمام ابن القاسم، وابن وهب، وسحنون، وابن الماجشون، كلهم خالف الإمام مالكًا، وهم مع ذلك من رواد المذهب المالكي. وقد تفرد علماء المغرب والأندلس باستنباطات خالفوا فيها الإمام مالكًا، من أمثال الإمام ابن عبد البر، وابن رشد الجد، وأبي الوليد الباجي، وأبي بكر بن العربي المعافري، وأبي عبد الله القرطبي، والإمام أبي إسحاق الشاطبي، وغيرهم كثير، حتىٰ اشتهرت مقولةٌ أندلسية جرت مجرىٰ المثل في الفقه المالكي المغربي والأندلسي، وهي قولهم: (لَسْنَا مَمَالِيكَ لِمَالِكٍ!) ورغم ذلك كله كانوا حماة المذهب المالكي ومجدديه عبر التاريخ. وقد واجه الإمام أبو الوليد الباجي معاصره ابن حزم الظاهري -رحمهما

الله تعالىٰ- مواجهة شديدة؛ دفاعًا عن المذهب المالكي، مع أن الباجي يعتبر من المجتهدين لا من المقلدين الحرفيين لمالك. وما أنكر أحد من هؤلاء وأولئك «مالكيتَه» قط، ولا تَنَكَّرَ لها!

وكذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمة الله عليهما -، وكثير من علماء العصر كالعلامة ابن باز، والشيخ العثيمين، والعلامة ناصر الدين الألباني[1]، وغيرهم من فضلاء المجددين. هم مجتهدون حقيقة، ولكن في إطار

(١) بعضهم لا يقبل أن نصنف العلامة محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله وأجزل له المثوبة- ضمن حنابلة العصر؛ وذلك بسبب ما صار للمذهبية في أذهانهم من معنىٰ قدحي! وليس الأمر كذلك، وإنما المذهبية -بالمعنىٰ الأصولي- لا تعدو أن تكون عبارة عن منهجية في الفقه عن الله ورسوله، وما دون ذلك فهو فوضىٰ! ويشهد الله أن من أحب حنابلة العصر إلىٰ قلبي اثنين: الشيخ العثيمين، والشيخ الألباني رحمة الله عليهما. فأما الأول فقد رأيته في مكة بالمسجد الحرام وهو يُدَرِّسُ، وقد كان شيخًا فقيهًا حقًا، ربانيًا مربيًا، محبوبًا لدىٰ العامة والخاصة، لطيف المعشر رقيق القلب، حكيمًا.
وأما الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله فقد كان رجلًا في أمةٍ في رجل! وأحسب أنه مر في حياته بثلاثة أطوار، كما قرأت في سيرته الذاتية واستنبطت من تطور منهجيته في الفتوىٰ. فبعدما برَّز في العلم، كان محدثًا متينًا، ثم صار مجتهدًا في الحديث، بل «أمير المؤمنين» في الحديث! فقد أنجز رحمه الله من التحقيقات والدراسات الحديثة ما ينوء به جيل من العلماء! قد بارك الله له في علمه وفي وقته وفي عمره؛ فكان ما كان من أمره. ثم صار بعد ذلك فقيهًا مكينًا، بل مجتهدًا في الفقه! فقد اشتغل بمنهج حنبلي في الفهم للأدلة، وترتب الحجاج والاستدلال، لكن بروح استقلالية نادرة، فكان بذلك مجتهدًا في إطار المذهب؛ ولذلك ربما خالف الإمام أحمد بن حنبل في بعض المسائل، علىٰ عادة المجتهدين من أتباع المذاهب، كابن تيمية عندهم مثلًا، وكأبي الوليد الباجي وأبي بكر العربي عندنا.
والعجيب أنه في بعض الأحيان كاد أن يكون مالكيًا؛ لقوله بالعمل، لا أقصد «عمل أهل المدينة»، ولكنه كان يلحظ عمل الصحابة والتابعين، خاصة في السنن ذوات الهيآت، ويعتمده في الاستدلال والترجيح، ويقيد به مطلقات الأحاديث، كما في فهمه الخاص لمعنىٰ «قص الشارب» و«إعفاء اللحىٰ»، وقوله بعدم وجوب النقاب علىٰ النساء، وعدم وضع اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ في الصلاة بعد الركوع. كل ذلك بناء علىٰ تقييد مطلقات الأحاديث بما جرىٰ عليه العمل لدىٰ الصحابة والتابعين. وله فتاوىٰ أخرىٰ عجيبة اعتمد فيها إضافة إلىٰ النصوص الشرعية ما عمل به السلف الصالح في المسألة، وكذا أقوال فقهاء الأمصار الكبار من الأربعة وغيرهم. وذلك هو الفقه حقًا. وقد كان من قبلُ يميل إلىٰ الأخذ بظواهر النصوص في الأوامر والنواهي مطلقًا، ولا يمل إلىٰ تخصيص ولا تقييد إلا قليلًا، علىٰ عادة فقهاء الحنابلة في هذا الشأن. وبذلك أزعم أن العلامة الألباني رحمه الله كان من المجددين حقيقة في هذا العصر.
إلا أن الملامة التي لحقته من بعض الجهات راجعة في الحقيقة إلىٰ مشاكل صدرت من بعض أتباعه =

المذهب الحنبلي، أي باستعمال أصوله وقواعده في الاستنباط والاستدلال. ولا يعيب ذلك أحدًا منهم أبدًا. ومن هنا؛ فكثيرًا ما يفتي أحدهم بحكم ما، في أمر حادث جديد من نوازل العصر؛ فنقول هذه فتوىٰ حنبلية، بمعنىٰ أنها مخرجة علىٰ أصول المذهب. كما نقرأ لبعضهم فتاوىٰ مخرجة علىٰ أصول أبي حنيفة، ككثير من فتاوىٰ العلامة يوسف القرضاوي مثلًا.

وكان حريًا بمن تأثروا بالدعوة السلفية من المغاربة أن ينتبهوا إلىٰ هذا كله. لكنهم لم يفعلوا بل نقلوا كثيرًا من الأقوال الحنبلية نقلًا حرفيًا، علىٰ أنها هي الكتاب والسنة! لا أنها ضرب من الفقه للكتاب والسنة. سواء في ذلك ما هو حنبلي محض، أو ما هو مُخَرَّجٌ علىٰ قواعد الحنابلة. فاصطدموا بما جرىٰ عليه العمل من الفقه المالكي المغربي. وتكسرت تياراتهم علىٰ صخرة الجهل بالاختلاف المذهبي!

ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله. والله وحده المستعان.

= المدسوسين علىٰ مدرسته! وربما استمعت إليه أحيانًا -كما في بعض الأشرطة المسجلة من دروسه- كيف يحاول بعض طلابه أن يورطه في أجوبة تثير الفتن؛ فيكتشف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك بذكائه؛ فيرد علىٰ السائل مؤدبًا إياه بعبارات شديدة، قبل أن يفصل في الإجابة علىٰ ميزان حكيم. وغير ما مرة ذُكِرَ في مجلسه بعضُ العلماء من مخالفيه بالسوء؛ فيغضب لذلك ويرد علىٰ من باء بتلك الغيبة بقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] وفرق كبير بين مدرسته السلفية المعتدلة، وبين ما تفرع عنها من مدارس، انحرفت إلىٰ «سلفية شكلانية»، أو «سِبَابِيَّة»، أو «قتالية»، أو «مخابراتية» وتلك قضية أخرىٰ. وقد عُلِمَ في كتاب الله ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨] فتقبله الله في الصالحين المصلحين، وغفر لنا وله أجمعين. آمين.

الفصل الثالث
الأخطاء المنهجية للتيار السلفي في تدبير الشأن الدعوى بالمغرب

لقد ترتب عما سبق بيانه من إشكالات مذهبية، وقوع التيار السلفي بالمغرب في عدة أخطاء منهجية، متفرعة عن استصنامه الحنبلي المشرقي شكلًا ومضمونًا، نوجزها في خمسة أخطاء فرعية، هي كما يلي:

- الخطأ المنهجي الأول: الإعراض عن المذهب المالكي واختلال ميزان الأولويات

لقد كان حريًا برواد التيار السلفي بالمغرب أن يدرسوا تاريخ المذهب المالكي؛ لتأصيل مقولاتهم فيه. فللمالكية أيضًا سلفيتهم لو كانوا يعملون! فقد اشتهر منهم الإمام ابن عبد البر، وابن أبي زيد القرواني، والإمام أبو إسحاق الشاطبي، والإمام أحمد زروق الفاسي، وغيرهم كثير فهؤلاء من أبرز فقهاء المالكية الذين اشتهروا بمحاربة البدع في العقائد والعبادات والتصوف، لكن دون النقض لمذهبيتهم المالكية، ولا التنكر لتصوفهم السني، تمامًا كما صنع الإمام ابن القيم رحمه الله في الحفاظ علىٰ حنبليته الاجتهادية، وتصوفه السني الأصيل معًا!

لكن إخواننا بالمغرب لم يستطيعوا التخلص من تقليد المذهبية الحنبلية حتىٰ علىٰ المستوىٰ المدرسي البسيط! فقد كانت مدارسهم العتيقة تركز في الفقه علىٰ الخلاصة الحنبلية المشهورة «زاد المستنقع» وشروحه، بدل الخلاصة المدرسية

المالكية: «مختصر خليل» أو «رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، وشروحهما، أو «القوانين الفقهية» لابن جزي الغرناطي مثلًا. ثم الإحالة في الفتوىٰ العامة علىٰ المصادر الحنبلية ككتاب «المغني» لابن قدامة، مع وجود الأمهات المالكية التي تبز كتاب «المغني» مادةً ومنهجًا، وحجةً واستدلالًا، ككتاب «الاستذكار» لشيخ الإسلام حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت: ٤٦٣هـ) وكتاب «التمهيد» له أيضًا، وكتاب «النوادر والزيادات» لابن أبي زيد القيرواني (ت: ٣٨٦هـ)، وكتاب «المعونة» للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت: ٤٢٢ هـ)، وكتاب «المنتقىٰ» لأبي الوليد الباجِّي (ت ٤٧٤ هـ)، و«البيان والتحصيل» لابن رشد الجد (ت: ٥٢٠هـ)، و«المقدمات الممهدات» له أيضًا، و«مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار» للقاضي عياض السبتي (ت: ٥٤٤هـ)، و«أحكام القرآن» و«عارضة الأحوذي»، وكتاب «القبس»، كلها لأبي بكر بن العربي المعافري (ت: ٥٤٣هـ)، و«الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي (ت: ٦٦٨هـ)، ثم «الذخيرة» للإمام القرافي (ت: ٦٨٤ هـ) .. الخ. فالمكتبة المالكية هي من السعة والضخامة والشمول؛ بحيث لا تستوعبها الأعمار، ولا تحصرها الأقطار. ولكن الهوىٰ المذهبي اللاشعوري استوطن قلوب كثير من دعاة السلفية الحنبلية فصعب عليهم الرجوع إلىٰ تراثهم الخاص.

والتنافس بين المشرق والمغرب قديم، فَمِنْ قَبْلُ كَتَبَ أحدُ المشارقة تقريظًا علىٰ كتاب «مشارق الأنوار» للقاضي عياض السبتي، فيه شيء من التعريض بالمغاربة، وهو قوله:

مَشَارِقُ أَنْوَارٍ تَبَدَّتْ بِمَغْرِبِ فَيا عَجَبًا كَوْنُ الْمَشَارِقِ بِالْغَرْبِ!

فلم يقبل القاضي رَحِمَهُ اللهُ تَعَجُّبَ صاحبِهِ من صدور العلم عن المغاربة؛ فرد عليه ببيت مُعَارِضٍ له قال فيه:

وَمَا شَرَّفَ الأَوْطَانَ إلاَّ رِجَالُهَا وَإلاَّ فلا فَضْلٌ لِتُرْبٍ علىٰ تُرْبِ!

ومشهور جدًا -لدىٰ المغاربة- إنشاد الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي:

أَنا الشَّمْسُ في جَوِّ العُلُومِ مُنِيرَةٌ وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنَّ مَطْلَعِيَ الغربُ!

وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَـجَـدَّ عَـلـىٰ مَـا ضَـاعَ مِـنْ ذِكْـرِيَ النَّهْبُ!

وشهد الله أننا لا نقول هذا تعصبًا للمغاربة، ولا للفقه المالكي، ولكننا نقوله بيانًا للحق وترجيحًا للحكمة، ولوجوب مناسبة الزمان والمكان والإنسان والبيئة في الدعوة إلىٰ الله، إحياءً للسنن وإماتة للبدع.

ثم كان أَوْلَىٰ بمن تصدىٰ لتجديد العلم بالمغرب صادقًا؛ أن يبدأ بصغار العلم قبل كباره، كما رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري[1]. فيؤسس التعلم علىٰ المذهب المالكي أولًا، ثم يرتقي به إلىٰ محاولة الاجتهاد في إطاره، ثم إلىٰ رتبة الاجتهاد المطلق، دون التعرض لمذهب العامة مما جرىٰ به العمل من مذهبهم؛ لما فيه من الفتن ما الله به عليم!

ثم كان أولىٰ بهم أن يتجردوا للدراسات العلمية التأصيلية. دون الاستغراق في القيل والقال، وسهر الليالي في اغتياب الرجال! وأن يتفرغوا لخدمة الكتاب والسنة من خلال تأصيل كتب الفقه المالكي، دلالةً واستدلالًا، وتصفيته مما علق به في عصور الانحطاط من البدع، كما حصل لغيره من سائر المذاهب الفقهية بلا استثناء؛ بسبب فشو الجهل وسيطرة التقليد علىٰ العباد. وأن يشتغلوا برد كل متونه ومنظوماته إلىٰ أصلها من الكتاب والسنة، وبيان طرائقها الاستنباطية، ومآخذها الاستدلالية، وبنائها -من الناحية المنهجية خاصة- علىٰ الأصول والقواعد التي قال بها مالكٌ رحمه الله، وجَعَلَهَا أساسَ مذهبه. ولا يمنع ذلك أبدًا من رد بعض الأقوال وإبطال بعض الأحكام -بتلك القواعد والأصول نفسها- مما تبين أن غيره أرجح منه وأولىٰ، ولكن علىٰ علم وبصيرة، كما صنع من قبلُ أئمة المذهب الكبار، من أمثال الإمام ابن عبد البر، وابن رشد الجد، وأبي بكر بن العربي، وغيرهم. وما عاب أحدٌ من أهل العلم عليهم صنيعهم، بل اتخذوهم أئمة لهم، وصاروا بهم مقتدين، وباجتهادهم متعبدين؛ لِمَا تواتر من تفوق علمهم، وخالص نصحهم، وصفاء صدقهم، وبالغ حكمتهم.

ثم الاشتغال من خلال ذلك كله -لو كانوا عقلاء- بتربية جيل من العلماء

---

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: «العلم قبل القول والعمل».

المجتهدين، والحكماء الربانيين، لتأسيس نهضة علمية إصلاحية بالمغرب؛ إذ بغير ذلك لا يكون لهم ولا للدين شأن.

هذا وإن الحركة السلفية بالمغرب -بعد هذا وذاك- قد فقدت نصرة الناس في المجال الدعوىٰ الصرف؛ بسبب اضطراب ميزان الأولويات الدعوية، والجهل الفظيع بفن «التواصل» عند مخاطبة الجمهور؛ وذلك بالتركيز علىٰ المفاسد الجزئية الخلافية، وإهمال المفاسد الكلية الإجماعية القطعية! وعدم مراعاة حاجة البيئة الدعوية، وطبيعة مشكلاتها، بل إن أغلبهم ينقل إلينا معارك ليست واقعة ببلادنا أصلًا، أو ربما نحن نعاني ما هو أعظم منها، فلا ينتبهون إلىٰ الاختلاف البيئي، وينخرطون في إيقاظ فتن ومشاكل هي عندنا بحكم الميتة؛ فيفسدون ولا يصلحون، ويدمرون ولا يعمرون!

وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ أمر من يشعل نيران معارك كلامية حول قضايا «الذات والصفات»، و«الإثبات والتعطيل أو التأويل»، في بيئة مات فيها علم الكلام أصلًا! أو ربما مات التدين ذاته! ومن أغرب الغرائب وأكلح الطامات أن يثار مثل ذلك في أوربا، بين شباب أضاعوا دين آبائهم وأجدادهم من أبناء الجاليات الإسلامية هناك، وكذا بين قوم حديثي العهد بالكفر من المسلمين الجدد! وما كان أحوج هؤلاء وأولئك إلىٰ التلطف والتألف! ولكن العمىٰ المنهجي يجعل أولئك «الدعاة» مصرين علىٰ البدء بما حقه التأخير، أو ربما حقه الإلغاء كلية! فيكونون بذلك مجرد موقظين للفتن لا أقل ولا أكثر!

ومن الاختلال المنهجي أيضًا الغلو في محاربة البدع، وعدم التمييز بين «البدع الحقيقية» وبين «البدع الإضافية»، علىٰ ما قرره العلماء في هذا الشأن ورتبوه، من أمثال أبي إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]. ثم بين بدع العقائد وبين بدع العبادات. وبين ما الشأن فيه أنه عبادة في الأصل؛ لكنه سيق مساق الوسيلة التعليمية، كقراءة الحزب القرآني بالمساجد، وأشكال أداء الأذكار والدعوات، وبين ما هو عبادة محضة مقصدًا وغاية، كحقائق الإيمان الكبرىٰ من إخلاص الدين، وأداء الصلوات خشوعها وركوعها وسجودها. فمن الخطأ عدم مراعاة الأولويات فيما

---

(١) كتاب الاعتصام: ١/ ٢١٠.

ينبغي البدء به من ذلك كله، وما ينبغي الختم به، وتقديس الاجتهادات الحنبلية في ذلك كله!

ومن أغرب ما شهدته من بعضهم، في مجلس جَمَعَنَا مع بعض المثقفين، وقد كان أحدهم من أشهر السِّكِّيرين! مُتَغَرِّبَ الفكر والثقافة، أَبْعَدَ ما يكون عن الدين وأهله! ثم شمله الله برحمته، فتاب منيبًا إلىٰ ربه!

وهجر حياته الأولىٰ هجرانًا تامًا، وشرع في أداء الصلوات والتزام الأوقات. ولكن ذلك كان علىٰ يد بعض إخواننا من «رجال الدعوة والتبليغ»(١)، فلما تكلم صاحبنا في المجلس صادف أن كان به أحد المتأثرين بالسلفية الحنبلية؛ فأعرض عنه مشمئزًا، وقد انعقدت عبسةُ وجهه! حتىٰ شعرتُ بالحرج الشديد إزاء صنعه! وقد كان التائب الجديد أشد ما يكون في حاجة إلىٰ الاحتضان والتلطف والتأليف! خاصة وأن زملاءه القدامىٰ قد أشعلوا نار الحرب ضده! ثم تكلمتُ مع صاحبي -بعد ذلك- بنوع من اللوم والعتاب الرقيق، قائلًا له:

- ألا ترىٰ أن صاحبنا قد صلح حاله؟

- فأجابني بسرعة: ولكن المنهج فاسد! .. (كذا!)

وكان ألمي لهذا أشد مما وجدت من عبسته! والله المستعان! ..

---

(١) وإني لأعلم أن جماعة «الدعوة والتبليغ» ربما شاب منهجها الدعوي شيء من الاختلال؛ بسبب إسناد بعض المهام الدعوية للعوام، والغلو أحيانًا في تمجيد الوسائل الدعوية المستعملة عندهم؛ لدرجة رفع بعضها إلىٰ مرتبة الوجوب الشرعي، فيقعون بذلك غي إلزام ما لا يلزم! وفي عدد احترام ميزان الأولويات الشرعية في حياة الأشخاص، ونحو ذلك. إلا أنني أشهد -مع ذلك- أنها ظُلِمَتْ من لدن التيارات السلفية ظلمًا كبيرًا، فقد بخسوها حقها؛ إذ جردوها من كل حسناتها، ولم يعترفوا لها بأي فضيلة! وصاروا تجاهها إلىٰ غلو مضاد! وإننا لنشهد أنها قد أفادت المغرب كثيرًا؛ بنشر الخير والصلاح زمنًا ليس باليسير، خاصة في البوادي، وفي بعض المناطق النائية، مما لم تستطع لا السلفية ولا الحركة الإسلامية الحديثة الوصول إليه. وأما في المدن فقد اقتحمت الخمارات والملاهي بدعوتها الحكيمة، متحملة كل أنواع الأذىٰ النفسي والمادي! وهي لا تواجه أحدًا إلا بالكلمة الطيبة، وبالصبر علىٰ الأذىٰ. وقلما وُجِدَتْ في العالم الإسلامي جماعةٌ دعوية بلغت مبلغها من حيث أخلاق الحلم والصبر والتضحية العجيبة، لولا بعض الجهل الذي خالط أقوالهم وأفعالهم. وكان الأولىٰ بالمصلحين السلفيين مواجهة جماعة التبليغ بالنقد البناء، معترفين لأصحابها بما أنجزوا من خير، وناصحين لهم فيما أخطؤوا فيه. وإنما العصمة للأنبياء وحدهم. وكُلٌّ ميسر لما خُلِقَ له. وإنما الموفق من وفقه الله.

فأي منهج هذا الذي يسوي بين فسوق وعصين أقرب إلىٰ الكفر؛ وبين صلاح وإيمان ربما شَابَهُ بعضُ دَخَنٍ؟ تالله إن هذه الموازين لفي ضلال مبين!

وإنه لمن الجهل بالبيئة وحاجاتها مثلًا أن تُقَامَ الدنيا وتُقْعَدُ؛ حربًا علىٰ قراءة «حزب القرآن» في وقت لا سلطان لهم عليه ولا علىٰ الناس! ولا إمكان ليسلكوهم في الأحسن والأصلح، تلاوةً وتدبرًا. وإنما النتيجة الطبيعية لعمل مثل هذا، في بلد مثل هذا، وفي زمان مثل هذا؛ هي حجب القرآن علىٰ الناس! والإسهام في تضييق دائرة الاشتغال به والإقبال عليه! ولو علموا طبيعة الظروف المحيطة بهم لكانوا هم أول من يقرؤه! ظروف نبت فيها جيل مغرَّب العقل مفتون الوجدان! قد تجرد منه تيار يناضل من أجل حذف القرآن كله من البلاد، وانتزاعه من قلوب العباد! ورحم الله ابن تيمية، فقد دبج كلامًا أغلىٰ من الذهب! في سياق وضع موازين المصالح والمفاسد، في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال في (القاعدة العامة: «فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها» (. . .) وعلىٰ هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا؛ لم يجز أن يُؤْمَرُوا بمعروف، ولا أن يُنْهَوْا عن منكر، بل يُنْظَرُ: فإن كان المعروفُ أكثر أَمَرَ بِهِ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم يَنْهَ عن منكرٍ يستلزم تفويتَ معروف أعظمَ منه. بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله! والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله! وزوال فعل الحسنات!

وإن كان المنكرُ أغلبَ نَهَىٰ عنه وإن استلزم فواتَ ما هو دونه من المعروف. ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أَمْرًا بِمُنْكَرٍ! وسعيًا في معصية الله ورسوله! وإن تكافأ المعروفُ والمنكرُ المتلازمان، لم يُؤْمَرْ بهما ولم يُنْهَ عنهما. فتارةً يصلح الأمرُ، وتارةً يصلح النهيُ، وتارةً لا يصلح لا أمرٌ ولا نهيٌ، حيث كان المعروفُ والمنكرُ متلازمين. وذلك في الأمور المعيَّنَةِ الواقعةِ[1].

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية: ٢٨/ ١٢٩-١٣٠.

وبالقطع، فإن النهي عن قراءة الحزب القرآني في هذه الظروف لا يؤدي إلا إلىٰ الخسائر الكبرىٰ في الدين والدعوة! ولا ينتج عنه إلا المفاسد التي تربو بكثير علىٰ مصالح إحياء سنن التلاوة السنية، كما كانت علىٰ عهد رسول الله ﷺ وصحبه! مع أن إحياء السنن بنازلتنا هذه غير ممنوع من الناحية الواقعية، وإنما هو فقط مشروط بالسكوت علىٰ طريقة تعليمية، عمل بها المغاربة منذ القديم؛ بهدف تعليم العامة القرآن، وإسماعه لمن لا قدرة له علىٰ سماعه إلا بهذه الوسيلة. والحاجة إليها اليوم آكد وأشد لو كانوا يبصرون! والمعركة الإيديولوجية اليوم حامية الوطيس حول الهوية الحضارية للوطن كله! ومعلوم أنه لا مشاحة في الوسائل التعليمية. وشهد الله، ما رأيت غلوًا في الإصلاح الدعوي ببلاد المغرب، مثل إصرار بعضهم علىٰ محاربة الطريقة الجماعية في قراءة القرآن، وأضراب ذلك من الوسائل التي جرىٰ بها العمل تربيةً وتعليمًا!

نعم، لقد اختل ميزان الأولويات فعلًا لدىٰ كثير من متزعمي التيار السلفي بالمغرب؛ فدخلوا في معارك وهمية مع خصوم وهميين، وتركوا العدو الحقيقي يعبث في الأرض فسادًا وهم لا يشعرون. إن المشكلات الدعوية للبلد هي غير ما يتصورن، وغير ما يتوهمون، وغير ما يستوردون من المشرق من قضايا ومعارك، هي بالنسبة لواقع المغاربة ترف زائد لو كانوا يبصرون! معاركنا شيء آخر تمامًا! المغرب يعاني من اهتزاز منظومة القيم وأصول الأخلاق الإسلامية، ومن وطأة «الفجور السياسي» كما فصلناه قبل[1]، ومن ارتجاع الإيمان لدىٰ بعض العامة والخاصة، ومن الإيديولوجيات «الأخرىٰ» المناقضة للدين عقيدةً وشريعةً، ومن تسرب الطائفيات والمذهبيات المخالفة لثوابت الوطن الدينية أصولًا وفروعًا! ومن تدهور «التعلم الشرعي»، وانهيار منظومة التعليم كله! ومن اضطراب المناهج التربوية الرسمية والشعبية، ومن الجهل العام بما لا يَسَعُ المسلمَ جهلُه، من العلوم من الدين بالضرورة! مما تقوم عليه أصول العبادات الكبرىٰ. وكل هذه القضايا الحقيقية هي أصول العمل الديني التي أعرض عنها السلفيون واشتغلوا بما وراءها بأزمنة بعيدة! وإنما اشتغل رسول الله ﷺ بما قرره القرآن في غير ما موطن

(١) في كتابنا: «الفجور السياسي».

من آياته وسوره، بما أسميناه بـ «وظائف النبوة»، من مثل ما أوردناه قبلُ من قوله تــعــالــىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

- الخطأ المنهجي الثاني: الغلو في التحقيقات العقيدة

وذلك بالدخول في مواجهة الأشعرية بإطلاق، دون تَحَرٍّ ولا تقييد، والأشعرية مدارس لو كانوا يعلمون. ثم القيام بإحياء الفِرَق البائدة؛ وبالدخول في معارك ماتت، وبعث فتنها من جديد. وتصنيف الناس في العصر الحاضر علىٰ موازينها، دون مراعاة التغيرات المعاصرة، ولا أحوال الزمان وأهله. ثم الغلو في التحقيقات العقدية وإدخال العامة في متاهاتها! مما لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أصحابه من بعده! الشيء الذي أدىٰ إلىٰ تعقيد التدين والغلو في أخذ أحكامه، ثم إلىٰ نفور عموم الناس من الإقبال عليهم. وما كان ذلك من منهج رسول الله ﷺ ولا صحبه. وما حمل السابقين علىٰ بيان الفرق قديمًا إلا الضرورة التاريخية؛ دفاعًا عن الدين والتوحيد خاصة. وربما جاز شيء من ذلك اليوم في بلاد أخرىٰ، استمرت فيها الطائفية وبقايا الفرق القديمة. أما المغرب فقد بقي بعيدًا -والحمد لله- عن ذلك كله. حتىٰ قمنا نحن اليوم بإثارة الجدل الكلامي المعقد بين الناس، بل بين العامة منهم، فاستهوىٰ الشيطان بعضهم وجعلوا ينطقون بمقالات المبتدعة.

وعموم الناس في بلاد المغرب لا يعرف لا «الأشعرية» ولا «الاعتزال» ولا «الإرجاء». بل حتىٰ أغلب المثقفين لا يعرف ذلك! وإنما هو عندنا أمر خاص بأهل الاختصاص الكلامي والفلسفي فقط. والعقيدة «الأشعرية» بمعناها الكلامي الدقيق -لمن يملك البصيرة- لا وجود لها بالمغرب إلا في بطون الكتب، ولا علاقة لها بحياة الناس اليوم. والشائع بين المسلمين المغاربة اليوم إنما هو الأشعرية «الأصلية»، التي لخصها أبو الحسن الأشعري رحمه الله من نصوص الكتاب والسنة، وانتصر فيها للإمام أحمد في محنته ضد المعتزلة. وهي عقيدة الإمام مالك قبلهم جميعًا كما هو معروف. ولا وجود اليوم في التدين العام

للأشعرية «الْجُوَيْنِيَّةِ» الْمُحْدَثَةِ، ذات الطابع الكلامي الصرف[١].

فانظر كم يكون حجم المفاسد التي يستجلبونها عندما يجلسون إلىٰ العوام وأشباه العوام يحذرونهم من التأويل والتعطيل! وهم أصلا لا يعرفون لا هذا ولا ذاك! وإنما عقيدتهم سليمة علىٰ الفطرة الأصلية البسيطة، التي جاء بها القرآن الكريم، وبينتها السنة النبوية، بلا تعمق ولا تكلف. ولو سألت أي مغربي اليوم بصورة تلقائية، فقلت له: «**أين الله؟**» لقال لك، كما قالت الجارية الأعرابية لرسول الله ﷺ: «في السماء!» فقال النبي عليه الصلاة والسلام لصاحبه: «**أعتقها فإنها مؤمنة!**»[٢] فلماذا لا يعتق هؤلاء الناسَ اليوم؟ لماذا لا يحررونهم من هذا الجدل البيزنطي العقيم؟ أم أن الجارية كانت تعرف «علم الكلام»؟ وتفرق بين التأويل والتعطيل والإثبات، وبين العلو والنزول؟ لماذا التفتيش العقدي المعقد؟ ولماذا الفتن؟ ولماذا البحث عن أمور هي عندهم هناك في المشرق، وما عندنا لها في المغرب من أثر؟ إن عموم المغاربة علىٰ العقيدة السلفية الفطرية السليمة. بلا دراسة ولا بحث في المذاهب والملل والنحل. إنهم علىٰ عقيدة القرآن وعقيدة السنة، يؤمنون بما جاء عن الله، بمراد الله، كما بلغ عنه رسول الله.

ومن الأخطاء المنهجية في هذا المجال أيضًا اعتماد الحركة السلفية بالمغرب مقرراتٍ عَقَدِيَّةً ألفها حنابلةٌ؛ لتصحيح العقائد لدىٰ الناس. وقد كان كتاب «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمن حسن آل الشيخ، مقررًا دراسيًا للحركة السلفية

---

(١) كان الإمام أبو المعالي الْجُوَيْنِي رحمه الله هو أول من دشن الاتجاه التأويلي في العقيدة الأشعرية؛ فانحرف بذلك عن أصول الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله. ثم جاء أبو حامد الغزالي -وهو التلميذ المخلص لشيخه الجويني رحمة الله عليهما- فرسَّخ عقيدة التأويل بما تجاوز به شيخه أبا المعالي! فكانت هذه العقيدة «الْجُوَيْنِيَّةُ» بعد ذلك تنسب إلىٰ الأشعري وهو منها براء. وقد بقيت عقيدة علماء المغرب تتأرجح بين أشعرية أصيلة وجُوَيْنِيَّةٍ محدثة. وقد حاول غير واحد من علمائنا ردها إلىٰ أصولها منهم العلامة ابن جزي الغرناطي في كتابه: (النور المبين في بيان عقائد الدين). ومن قبله قال أبو بكر ابن العربي المعافري تلميذ الغزالي قولته المشهورة فيما وقع فيه شيخه من غلو تأويلي في مجال الإلهيات: (شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع!) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٩/٣٢٧. وقال أيضًا: (شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر!). مجموع فتاوىٰ ابن تيمية: ٤/٦٦. والرسالة الصفدية، له: ١/٢٥٠.

(٢) رواه مسلم.

بالمغرب زمنًا. لا يكادون يشتغلون بغيره، اللهم إلا ما كان من كتاب «العقيدة الواسطية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ثم كتاب «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة الألباني رحمه الله. وكلها كتب صحيحة مليحة. هذا أمر لا شك فيه ولا مراء. ولكنها إنما تصلح أن تكون مراجع خاصة لأهل العلم في أنفسهم، لا مقررات دعوية لعامة الناس، في بلاد لها أهلها وعلماؤها وظروفها الخاصة. لقد كان أولىٰ بهم أن ينظروا إلىٰ ما يشبه ذلك من المصنفات -أو ربما كان أحسنَ وأبْيَنَ- في التراث العقدي المالكي. وكان أولىٰ بهم أن يعتمدوا -مثلًا- كتابَ «الإبانة في أصول الديانة» للإمام أبي الحسن الأشعري نفسه، وهو كتاب في العقيدة السلفية الأصيلة -كما سبق بيانه- لا علاقة به بالعقيدة «الْجُوَيْنِيَّةِ»، باعتراف علماء السلف والخلف، بما في ذلك علماء الحنابلة أنفسهم. وكذا كتاب «شرح عقيدة مالك الصغير» للقاضي عبد الوهاب البغدادي، علىٰ مقدمة «رسالة ابن أبي زيد القيرواني»[(١)]. وهي عقيدة سلفية واضحة، قد أشاد بها ابن تيمية رحمه الله واستشهد بنصوصها في غير ما موطن من فتاويه. ثم كتاب «النور المبين في بيان عقائد الدين»[(٢)] لابن جزي الغرناطي رحمه الله، وكذا «مقدمته» العَقَدِيَّة لكتاب «القوانين الفقهية». فكل ذلك عقيدة سلفية سليمة. وهي كتب تفضل الكتب الأخرىٰ؛ بكونها ألَّفَها علماءُ مُعْتَمدونَ عَقَدِيًّا ومَذْهَبِيًّا من لدن المغاربة عبر التاريخ! فهي علم مُسْتَنْبَتٌ غير مستود! وفي ذلك ما فيه من الحكمة الدعوية والقوة الحجاجية.

والأخطر من هذا وذاك أن أغلب من تتلمذ علىٰ متأخري زعماء السلفية إنما هم العوام وأشباه العوام. وما تخرَّج عليهم من طلبة العلم إلا قليل؛ فنتج عن ذلك -بعد فترة «الانفجار العظيم» وانطلاق دخان الفتنة من ركامه- أن تصدَّر المجالسَ جيلٌ من الجهال، يقودون حركة الانشاقات! ويمسخون السلفية الأصلية إلىٰ «سلفيات»! فأصدروا الفتاوىٰ والبلاوىٰ! وإنما أغلبهم من الفاشلين دراسيًا، المطرودين من المدارس في وقت مبكر من أعمارهم، والعاجزين حتىٰ عن طلب

---

(١) وقد شرحها أخونا الداعية: الأستاذ الوزاني برادعي شرحًا مفيدًا جدًا، سماه: «الشرح والدلالة علىٰ مقدمة الرسالة». صدرت طبعته الأولىٰ بفاس. مطبعة أنفوبرانت.

(٢) حققها الأستاذ خالد الحسني الوزاني ضمن رسالة له؛ لنيل «دبلوم الدراسات العليا» في الدراسات الإسلامية، نوقشت بكلية الآداب بالرباط، في السنة الجامعية: ١٩٩٥/١٩٩٦م.

العلم الشرعي في مدارس التعليم العتيق! فصار منهم من تَسَمَّىٰ «شيخًا» ومن تَسَمَّىٰ «زعيمًا»! وإنك لتجد أحدَهم يكاد يقبض بأصابعه علىٰ أطراف شفاهه؛ لتقويم كلامِه وبيانِه؛ عسىٰ أن يسلم له نطقُ لسانه، ولكن دون جدوىٰ، تتكسر دون مراده الكلمات، وتنحرف في فمه العبارات! ثم يجادل -بعد ذلك- في حُجِّيَّةِ الحديث، ومراتب الإجماع، وأنواع القياس! ويُجَهِّلُ هذا العالِمَ ويُبَدِّعُ ذاك!

ومن هنا؛ وبمؤثرات سياسية من جهات مشبوهة -داخلية وخارجية- تكونت «السلفية القتالية»! - ولا أقول: «الجهادية»[١] -فتناسلت عقاربها في كل مكان! لقد كانت بيئة التفتيش العَقَدِيِّ، والمنهج الحرفاني -ذي الأصول الحنبلية- في فهم الكتاب والسنة، بالإضافة إلىٰ النفسية المرضية التي تعاني منها الفئات الاجتماعية المهمشة، وكذا الظلم السياسي العالمي للمسلمين في كل مكان؛ كل ذلك وما في معناه كان سببًا في تفريخ العقليات «الخوارجية»[٢]، التي خرجت علىٰ المجتمع من تحت جبة التيار السلفي مع الأسف!

- الخطأ المنهجي الثالث: مواجهة التصوف بإطلاق

ثم دخلوا في مواجهة التصوف مطلقًا[٣]، بلا تمييز بين أشكاله ومسالكه، ولا بين صالحية وفُجَّارِهِ! وما تكلم ابن تيمية نفسُه -وهو نَقَّادَةُ التصوف- عن كثير

---

(١) مصطلح «الجهاد» مفهوم تعبدي نظيف، ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في سياق تزكية النفس؛ بإفنائها في ذات الله، بدءًا بمقامات الإخلاص في أصغر الأمور وأدقها، وانتهاءً بمقام الاستشهاد في سبيل الله؛ إعلاءً لكلمة الله. فهو إذن مصطلح كلي شمولي لا يقبل التجزيء. وشتان شتان بين ما تستعمله اليوم وسائل الإعلام المغرضة، والجماعات الضالة؛ من دلالة محرفة لهذا المصطلح وبين حقيقته القرآنية السامية ومفهومه العظيم في الإسلام!

(٢) الأصل في النسبة أن تكون للمفرد، كما تقتضيه القاعدة النحوية، لكنا آثرنا هنا جعلها للجمع؛ رفعًا للبس في دلالة المصطلح.

(٣) قد تَحَرَّجَ بعضهم من استعمال مصطلح (التصوف) و(الصوفية)؛ للدلالة علىٰ منهج السلوك الروحي، وعلم السير إلىٰ الله -جل وعلا- عبر مقامات الإيمان؛ بسبب ما لازم اللفظ من إحالات علىٰ أهل الزندقة من القائلين بالاتحاد والحلول، وغير ذلك من المقولات الفلسفية والشطحات الشيطانية! واستعملوا بدل مصطلح (التصوف) مصطلح (الزهد)، وهذا إنما هو «منزل» واحد ضمن عشرات المنازل التي رتبها القوم في منهج السير إلىٰ الله، كالتوبة، والإنابة، والإرادة، والفقر، والزهد، والتوكل، =

من المتصوفة المشهورين إلا بخير! وما ذكر الشيخَ عبد القادر الجيلاني في فتاويه إلا أعقب ذكره -في الغالب- بقوله: «قَدَّسَ اللهُ رُحَهُ!» وقد نقل عنه في علم السلوك عدة نصوص[1]. وما تحرج تلميذه ابن القيم من شرح كتاب «منازل السائرين» لشيخ صوفية الحنابلة، الإمام أبي عبد الله الهروي الأنصاري، وما كان يصفه إلا بلقب «شيخ الإسلام!».

وقد رتب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في ذلك ترتيبًا عجيبًا؛ فجاء بِحِكَمٍ وموازينَ حقُّها أن تُكتب بماء الذهب! ولو أخذ بها حنابلة العصر لكانوا أعدلَ وأقوم! قال رَحِمَهُ اللهُ: (أفضل الخلق بعد الأنبياء الصِّدِّيقُون، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. ولهذا ليس عندهم [يعني الصوفية] بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصِّدِّيقينَ، فهو الصِّدِّيقُ من أهل هذه الطريق، كما يقال «صِدِّيقُو العلماء»، و«صِدِّيقُو الأمراء»، فهو أخص من «الصِّدِّيقِ المطلق» ودون « الصِّدِّيقِ الكامل الصِّدِّيقِيَّةِ»، من الصحابة والتابعين وتابعيهم. فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعُبَّاد من البصريين إنهم «صِدِّيقُونَ»، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صِدِّيقُونَ أيضًا، كُلٌ بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله، بحسب اجتهاده. وقد يكونون من أجَلِّ الصِّدِّيقينَ بحسب زمانهم، فهم من أكمل صِدِّيقِي زمانهم. والصِّدِّيقُ في العصر الأول أكمل منهم. والصِّدِّيقُونَ

= والإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبة ... إلخ. فهو إذن لفظ غير جامع للمقصود. والحقيقة أن (التصوف) مصطلح تضمن الصلاح والفساد، والخير والشر، ككثير من الاصطلاحات العلمية الحادثة في التاريخ الإسلامي. مثل مصطلح «الأصول»، ومصطلح «العقيدة» ومصطلح «التوحيد» ... إلخ. فكلها مفاهيم ذات دلالات تختلف -علىٰ حسب مذاهب أصحابها- بين الصلاح والفساد، وما خلا شيء منها قط من انحراف. ثم إنه ما كان لفساد شرذمة مندسة في القوم أن يلغي مصطلحًا من الاستعمال الإيجابي، وإلا ألغينا -بنفس الاعتبارات- كثيرًا من المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي! وقديمًا قيل: «لكل مذهب سفاؤه». وقد استعمل الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مصطلح (التصوف) بصورة إيجابية في بعض المواطن من فتاواه، كما ستراه بنصه أعلاه، وكذا تلميذه ابن القيم في كل كتابه (مدارج السالكين)، ولم يجد أحدهما في ذلك أدنىٰ حرج.

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية: ٣٠٦/٨. وكذا: ٤٥٨/١٠، وكذا: ٤٧٠/١٠، وكذا: ٤٩٠/١٠، ونحو ذلك كثير.

درجاتٌ وأنواع. ولهذا يوجد لكلٍّ منهم صنفٌ من الأحوال والعبادات، حَقَّقَهُ وأحكمه، وغلب عليه، وإن كان غيرُه في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه؛ تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة! ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم علىٰ ذلك طوائفُ من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء! وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقرَّبُ بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين مَنْ قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم. كالحلاج مثلًا، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة، وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية»، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخ بغداد».

فهذا أصل التصوف. ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: «صوفية الحقائق»، و«صوفية الأرزاق»، و«صوفية الرسم». فأما «صوفية الحقائق»: فهم الذين وصفناهم. وأما «صوفية الأرزاق»: فهم الذين وقفت عليهم الوقوف، كَالْخَوَانِكِ[1]، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز. وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك. ولكن يشترط فيم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية، بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

(١) **الْخَوَانِك**: جمع «خَانِكَاهْ» وهو لفظ فارسي، معناه: البيت .**والْخَوَانِك**: نوع من الزَّوَايَا أو التَّكَايَا والرِّبَاطَاتِ، حدثت في الإسلام خلال القرن الرابع الهجري، وجُعلت للصوفية خاصة، يتفرغون فيها لعبادة الله تعالىٰ بالصلوات والأذكار. ولذلك يُرَتَّبُ لهم فيها الطعامُ واللحمُ والخبز.

الثاني: التأدب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يُلتفت إليها. **والثالث**: ألاَّ يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا. فأما من كان جماعًا للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقًا؛ فإنه لا يستحق ذلك. وأما «صوفية الرسم»: فهم المقتصرون علىٰ النسبة. فَهَمُّهُمْ في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك. فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر علىٰ زي أهل العلم، وأهل الجهاد، ونوعٍ مَا من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقةَ أمره أنه منهم، وليس منهم!)[1].

وأما فيما يخص شطحات القوم فإن الإمام ابن القيم ﷺ قد نصب لذلك ميزانًا ذهبيًا، يُحِقُّ الحقَّ ويُبْطِلُ الباطلَ، جاء في نص بديع تشد إلىٰ مثله الرحال! وظفناه غير ما مرة في كتبنا؛ لبيان هذه الحقيقة التي عمي عنها كثير من مدعي السلفية في هذا الزمان. وهي قوله ﷺ: (هذه الشطحات أوجبت فتنة علىٰ طائفتين من الناس! **إحداهما**: حُجِبَت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقًا! وهذا عدوان وإسراف! فلو كان كل من أخطأ، أو غلط؛ تُرِكَ جملة، وأُهْدِرَتْ محاسنُه؛ لفسدت العلوم والصناعات والحِكَم، وتعطلت معالمها!

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم عن رؤية شطحاتهم، ونقصها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضًا معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: -وهم أهل الإنصاف- الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته!)[2]

هذا بالإضافة إلىٰ حقيقة تاريخية أخرىٰ، أدت الاستهانةُ بها إلىٰ فشل المشروع

---

(١) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية: ١١/١٧-٢٠، نشر دار عالم الكتب، الرياض.

(٢) مدارج السالكين: ٢/٣٩-٤٠.

السلفي. وهي أن المغرب بلد صوفي بامتياز! فالتدين الشعبي فيه إنما شكلته من الناحية التاريخية المدارس الصوفية منذ القديم. ولذلك ما أسرع أن تنجح فيه المبادرات الصوفية، فتتمكن من الانتشار والاستيعاب للمريدين؛ بمجرد ظهور أحد الأشياخ المتمكنين من الإقناع والإشباع الروحيين، سواء كان علىٰ حق أم كان علىٰ باطل. فتلك قضية أخرىٰ. فإنما حديثنا هنا عن طبيعة اجتماعية دينية لدىٰ المغاربة. ولذلك كثيرًا ما اصطدمت دعوات الفكر السلفي بصخرة الطرق الصوفية علىٰ المستويين الرسمي والشعبي، فارتدت مشاريعها خاسرة. والحكمة تقتضي من الدعاة تقديم بديل متوازن ينفي عن الدين -بعلمٍ وبحكمةٍ- غلو بعض الطرق الصوفية، وانحرافها عن الدين الخالص إلىٰ متاهات الخرافة والدجل. وذلك بإنضاج خطاب رباني ندي، تغلب فيه طراوة الروح ونداء الإيمان علىٰ لائحة أحكام الحلال والحرام ومنطق الاتهام. وإنما الحكيم هو من يسوق الأحكام الشرعية مساقًا تربويًا ربانيًا، علىٰ هدي السنة والمنهاج التربوي النبوي الحق، لا مساقًا عقابيًا سِبَابيًّا! فيكسب قلوب الناس أولًا، ثم يكسب سلامة دينهم من الخرافات والبدع ثانيًا. ولكن كثيرًا من الدعاة -مع الأسف- عن هذا عمون. ذلك، وإنما الموفَّق من وفقه الله.

- الخطأ المنهجي الرابع: تضخم الشكلانية المظهرية

حيث صار المظهر الخارجي هو المقياس الأساسي لسلامة الدين لدىٰ كثير منهم. وغدا إعفاء اللحية وتقصير الثوب بالخصوص هو المقياس الأساس للالتزام بالدين! نعم لا شك أن ذلك من أهم سنن الهيآت الدينية والمظاهر التعبدية في الإسلام. لا ننقصها شيئًا من أحكامها ولا نصوصها مما شرعه الله ورسوله. ولكنَّ بعض التيارات السلفية ضخمته كثيرًا، وأعطته من الرعاية الدعوية أكثر من حجمه! حتىٰ كاد أن يصير هو أساس «الولاء والبراء» لدىٰ بعضهم! بل لقد صار . . ! وما كان ينبغي أن يصير، خاصة في بيئة «حَليقَة»، تَغَرَّبَتْ عاداتُها وأذواقُها وأفكارُها منذ حوالي قرن من الزمان! ونحن لا نمنع أن يدعو المصلحون إلىٰ سُنَّة مندوبة أو واجبة، ولكننا نعيب تضخيمها إلىٰ درجة أن يحتل الفرع محل الأصل! فيحصل تشوه الدين في الفكر والممارسة.

ولقد شهدتُ بيئةً تضخمت فيها الدعوة إلىٰ سنن فرعية علىٰ حساب أحكام أصلية، فنبت فيها جيل يتحرج من حلق لحيته أو قصها، ولكنه لا يتحرج أبدًا من أكل أموال الناس بالباطل! وأكل السحت والتعامل بالربا مثلًا! وليس معنىٰ هذا أننا ندعو الناس إلىٰ حلق لحاهم، كلا وحاشا! وإنما القصد وضع كل حكم في موضعه الذي وضعه الله فيه. وعدم الغلو في تضخيم المظاهر علىٰ حساب الأحكام الكلية الكبرىٰ، من أمور الحقائق الإيمانية، وأصول العبادات والأخلاق الإسلامية الكبرىٰ، وأمهات الفضائل، وأمهات الرذائل، والتربية علىٰ ذلك كله تخليةً وتحليةً. وأن نقبل من الناس تدينهم -في زمانٍ لأَنَ فيه الدين كثيرًا- علىٰ سبيل التدرج، الأَوْلَىٰ فالأَوْلَىٰ، وأن نأخذهم بالرفق علىٰ منهج الكتاب والسنة في ترتيب حقائق التشريع تعليمًا وتزكيةً.

وإنما حدث هذا الاستصنام الشكلاني للمظاهر؛ بسبب اعتماد الرؤية التجزيئية للشريعة، وانعدام الفقه السليم لمقاصد النصوص ومراتبها الدلالية والاستدلالية؛ مما نتج عنه ضرب من الظاهرية الفقهية، واعتماد الشكلانية في التدين، واللا وطنية في اللباس؛ تقليدًا للمشارقة، عربًا وعجمًا، فصار اللباس الأفغاني موضة التدين بين فريق من الناس زمنًا، ثم صار اللباس الخليجي هو الغالب بعد ذلك. وخاصة أشكال التنقب لبعض النساء! اللائي صرن يتصرفن بطريقة الخليجيات في التحجب. وكان أولىٰ بهن -لو صدقن في تدينهن حقًا- أن ينتقبن -إن كان ولا بد- بطريقة المغربيات الأصيلات، كما كان الأمر عندنا لدىٰ الجدات والأمهات في السابق. والجلباب النسوي المغربي الأصيل أَسْتَرُ وأَوْقَرُ، لو كانوا يعلمون! ولكن لعن الله الأهواء! فالشيطان يزين لكثير منهن التعميق في الإغراب والغلو في الاختلاف!

ولبس بعض الشباب قمصانًا ذات هيئة باكستانية، أو خليجية، وأعرضوا عن القمصان المغربية والجلابيب المغربية، كأنما هذه لا تستر عورة ولا تفي بسنة! ثم أطالوا لحاهم بصورة مزعجة ومقرفة؛ حتىٰ إنك لتجد أحدهم أحيانًا قد ملأت لحيتُه كلَّ وجهه، وغطت كل صدره! بلا تهذيب ولا تشذيب! رغم أن العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قال ببدعية ما دون القبضة من اللحية! ووجوب قص ما طال

منها! وهو قول قديم لبعض أهل العلم كالإمام الطبري وغيره[١]. وهو ثابت من عمل عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما، وهما من رواة أحاديث الإعفاء؛ بما يدل علىٰ أن المقصود منها إنما هو ما بَيَّنَاه بعملهما من قص ما دون القبضة. وهو الذي عليه جمهور كثير من التابعين وفقهاء الأمصار. وقد كان الشيخ الألباني رحمه الله دقيق الاستدلال، عميق الاستنباط، في محاورة بينه وبين الشيخ أبي إسحاق الحويني المصري؛ حيث بيَّن بما يشبه القطع أن ذلك كان عمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه يؤول إلىٰ أن يكون من السنة التقريرية[٢].

وليس كل اللحىٰ يطول خلقةً، بل منها ما يطول ومنها ما لا يطول، بل ينمو بشكل معتدل، ولله في خلقه شؤون. سبحانه وتعالى. وقد رأيت مرة رجلًا صغير الوجه قد أطال لحيته بشكل فظيع فادح؛ حتىٰ صارت أضعاف مساحة وجهه طولًا وعرضًا! ما رآه أحد إلا فزع! وقد كان معجبًا بلحيته! منبهرًا بطولها وانتشارها غير العادي، ولا يدري الأحمق أنه بذلك أبعد ما يكون عن السنة وجمالها! وقد أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة التجمل في المظهر للمسلمين، فقال قولته المشهورة: (إن الله جميل يحب الجمال!)[٣]. وتالله إن اللحىٰ الفادحة الحجم، لا تزيد المرء إلا قبحًا! فحاشا أن يكون مثل ذلك من الدين! وقد غرهم ما روي من «كثافة» لحي بعض الصحابة. وذلك كله خارج عن محل النزاع إذ «الكثافة» لا علاقة لها بمعنىٰ الطول. فقد تكون كثيفة لكنها مشذبة مهذبة، علىٰ قَدْرِ ما تَحْسُنُ به هيئةُ الوجه، كما قرره الفقهاء منذ القديم. وكل أحاديث الإعفاء مقيدة بعمل الصحابة؛ لأنها سنة ذات هيئة. ومعلوم أن السنن ذوات الهيآت لا يقيدها ولا يبينها إلا العمل! وعلىٰ هذا أغلب فقهاء الأمصار. وقد كتب بعض العلماء في ذلك بحوثًا كافية شافية؛ لمن أراد التفصيل[٤]. والله المستعان.

---

(١) الإنصاف فيما جاء في حكم الأخذ من اللحية من الخلاف، للشيخ دبيان محمد الدبيان.

(٢) محاورة صوتية مسجلة، وهي معروضة في كثير من المواقع الإسلامية بالإنترنت.

(٣) رواه مسلم.

(٤) ن. «الإنصاف فيما جاء في حكم الأخذ من اللحية من الخلاف»، للشيخ دبيان محمد الدبيان. وكذا فتوىٰ مفصلة بأدلتها في هذا الشأن للشيخ سلمان بن فهد العودة، معروضة بالإنترنت.

وزاد حرفانيةَ الفهم للدين وتجزيئَهَ الشكلاني غُلُوًّا أنَّ من انتسب للعلم منهم قد تخرج من معاهد كانت تعاني أصلًا من اختلالٍ في مناهج التعليم، وعدم توازنها؛ فإغفالها لتدريس علم أصول الفقه وقواعده، ومقاصد الشريعة ومراتبها، وقواعد اللغة العربية وبيانها، وعلم الخلاف العالي وأنواع المذاهب؛ مما نتج عنه ضيق الأفق العلمي للمتخرجين، وانحصارهم في دائرة التقليد لما تلقنوه، دون القدرة علىٰ محاولة معرفة أدلة الآخرين، بله محاولة الاجتهاد والتجديد!

وبسبب التعصب المذهبي الكامن في مثل هذه العقليات، نبت منهم قوم لا يتورعون في الرد علىٰ مخالفيهم من الإسلاميين بالشتم واللعن والسباب، والتعبير بأبذأ العبارات والألفاظ، مما تمجه الآذان المؤمنة، وتكرهه العقول السليمة. ولم يكن ذلك عندهم مقصورًا علىٰ نقد الإسلاميين الحركيين فحسب؛ بل هو شامل لكل مخالف أنىٰ كان! ولو ممن هو منهم! أي ممن رفع شعار السلفية قولًا وعملًا. حتىٰ آلُوا هم أنفسهم -في نهاية المطاف- إلىٰ التشرذم الفِرَقِي، والتحزب الأهوائي، ووقعوا فيما عابوه علىٰ الإسلاميين الحركيين! وتكونت «جماعات» مصغرة بشكل «ميكروسكوبي»، تلتف حول بعض الأنصاب البشرية، ذات النزعة «الشخصانية»، أو «البترودولارية». فسهل بذلك -وقد استحكمت الأهواء من الأنفس- التورط في الاستجابة للتوظيفات «المخابراتية» المختلفة، والدخول الآثم في الاصطدام «الموظَّف» ضد الحركات الإسلامية، ثم ضد ثوابت الوطن الدينية، فقهًا وسلوكًا؛ لأغراض سياسية يجني ثمارَها قومٌ يترصدون بالدين وأهله الدوائر. فكانت عقارب السلفيين بذلك أشد وأنكىٰ من غيرها! والله المستعان.

وقد كان حريا بزعماء السلفية بالمغرب أن ينخرطوا في مشروع التصحيح -لو كانوا حكماء عقلاء- من خلال مقولة ابن عاشر المشهورة:

فِي عَقْدِ الأَشْعَرِيِّ وَفِقْهِ مَالِكْ وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيدِ السَّالِكْ

ولهم في الأشعرية الأصيلة دون «الْجُوَيْنِيَّةِ» المحدثة خير مجال لعرض عقيدة أهل السنة والجماعة الصحيحة السليمة. كما أن لهم في أصول مالك وقواعده الاستنباطية ما يساعدهم علىٰ تصحيح التدين عقيدةً وعبادةً، وإرجاع ما انحرف

من ذلك إلىٰ أصله من الكتاب والسنة. ولهم في ذلك سلفٌ عظيم، من أمثال ابن عبد البر والإمام الشاطبي وغيرهما كثير، كما أشرنا إليه آنفًا.

ثم لهم في مفهوم «التصوف السني» المجال الأوسع والأرحب؛ لرد كل سلوك في هذا الشأن إلىٰ ما كان عليه رسول الله ﷺ - وصحابته الكرام، ثم مشاهير الزهاد والعباد من التابعين وأتباعهم، ممن أجمعت الأمة علىٰ فضلهم، كالإمام الجنيد، شيخ القوم وإمامهم، ولهم خير مرجع وطني تاريخي، في الحركة الإصلاحية الصوفية، التي بداها الشاطبي بالأندلس، واستأنفها أحمد زروق بالمغرب، وكذلك أبو عبد الله المالقي الساحلي؛ لرد التصوف إلىٰ أصوله، وتصفيته من علاته وشطحاته، وضبط مقولاته بضابط الشريعة، وإنارة مسلكه بنور العلم. كل ذلك من داخل بنيته وكيانه، ون خلال مدارسه ورجاله؛ بتسليط حقه علىٰ باطله، وضرب دجاجلته بأوليائه! فتستبين طريق الصلاح بإذن الله، بلا ضجيج ولا عجيج. وإذن يكون رجال السلفية بذلك - كما كان الإمام الشاطبي قديمًا، وهو الفقيه المالكي المجدد للفقه والتصوف - مصلحين للبلاد والعباد، من الداخل لا من الخارج! ويكونو أفقه لأحوال الناس، وأدري بطبيعة أدوائهم. فيتنزل الدواء علىٰ قدر الداء. وتلك هي عين الحكمة. ولا بركة في عملٍ أَخْطَأَتْهُ الحكمة. وتجاربهم الفاشلة في هذا السياق خير دليل! إن مثل تجربة «السلفية» -في مرحلتها الأخيرة- كمثل فتية ورثوا عن أبيهم منزلًا قديما في صحراء موحشة، فلم يزالوا يسكنونه وإن انهدمت أغلب مرافقه الداخلية، إلا سوره الخارجي وبابه؛ حتىٰ لم تعد له فائدة سوىٰ أنه لم يزل يحميهم من عوادي السباع والضباع. فأصروا علىٰ هدم البيت لإعادة بنائه من جديد علىٰ أصوله الأولىٰ، تمامًا كما كان من قبل مرافقه. ولما هدموه، وقعوا في خلاف شديد حول تصميمه الأصيل كيف كان! ولا اجتمعوا في ذلك علىٰ رأي واحد! حتىٰ فاجأتهم السباع والوحوش الضواري! وهم لا يزالون يتجادلون في العراء! فافترست بعضهم، وشردت بعضهم في الفلوات والقفار، فلم يزل تائهًا بلا دارٍ ولا ما يشبه الدار!

- الخطأ المنهجي الخامس: الارتباط المادي المشروط ببعض الدول المشرقية

والسبب الرئيس في اصطباغ السلفية الدخيلة بالمذهبية الحنبلية -لدىٰ بعضهم- إنما هو الارتباط المادي بدول الخليج! وأنا أزعم أنه لولا «البترول» لما كان للحنبلية -في ثوبها الجديد- كل هذا التأثير علىٰ كثير من دول العالم الإسلامي! الشيء الذي دفع بعض الانتهازيين إلىٰ تصدر قيادة التيار السلفي أو الانتماء إليه علىٰ الأقل؛ طمعًا في الحصول علىٰ دعم مادي يخرجه من الفقر إلىٰ الغنىٰ، أو منحة دراسية بالمشرق تفتح له الآفاق، أو منصب «داعية» بالخارج يتقاضىٰ عليه أجرة شهرية منهم، أو نحو هذا وذاك.

ونحن لا ننكر -من حيث المبدأ- أن تساعد بعض الدول الغنية الدعاة إلىٰ الله في غير بلادها، وأن تنفق علىٰ العمل الإسلامي والعمل الخيري هنا وهناك، بل هذا من أفضل أسباب تقوية التواصل بين أعضاء الجسم الإسلامي الكبير. لكن المشكل إنما هو الدعم المادي المشروط كما وصفناه أعلاه. أعني أن تمتد إليك يد المساعدة بشرط أن تكون حنبليًا أو تكون شيعيًا! هذا هو الإشكال. وهو من أبرز الأخطاء المنهجية التي أربكت العمل السلفي، إذ وجد بعضُ زعمائه أنفسَهم كالمضطرين للدعاية لمذاهب أخرىٰ، غير ما استقر عليه العمل في بلده؛ فاستظهر كثيرٌ منهم دروس «التوحيد» وأضاع دروس الإخلاص! ودَرَسَ أصول «العقيدة» وفَقَدَ أصول الإيمان! مما أدىٰ ببعضهم ممن غُلِّقَتْ دونهم الأبواب -لأسباب تنافسية- إلىٰ رد فعل نفسي تكفيري، فصار يلعن سلفية «البترودولار» كما سماها، وأنشأ «سلفية» أخرىٰ ذات خلفية «خارجية»[(١)]، ومنهج تكفيري قتالي! فانضم إليه كل من يعيش منهم مأساة التهميش الاقتصادي والإقصاء الاجتماعي. وأسسوا خطابًا «خارجيًا»، ذا خلفية انتقامية من الناحية اللا شعورية. وقد انعقد ذات مرة في بعض الأحياء المهمشة من بعض المدن المغربية مجلسٌ للحوار بينه وبين ممثل جماعة إسلامية أخرىٰ، فلما بلغ الحوار بينهما الباب المسدود -بسبب تباين

---

(١) نسبة إلىٰ فرقة «الخوارج» الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

الأفكار والمنطلقات- قال له صاحبه وهو يحاوره: «بيننا وبينكم كتاب الله»، فرد عليه الزعيم السلفي القتالي بجدة: «بيننا وبينكم الكلاشينكوف!» كذا . . !

وما كان لمثل هذه الأمراض أن تظهر بالصف الإسلامي السلفي لو التزم بمذهبيته المالكية، وفك ارتباطه بالدعم المادي الخليجي؛ ولو فعل لجاء بسلفية تصحيحة فعلًا، تعالج الغلو والانحراف في العقائد والعبادات، تمامًا كما كان شأنها في المغرب عبر التاريخ؛ وذلك لما للمذهب المالكي من قدرة استيعابية لكل وجوه الخلاف، وقدرة فريدة علىٰ التعايش مع سائر الاجتهادات، بعيدًا عن منطق التبديع والتكفير؛ لأبسط الأشياء ولو كانت اجتهادية محضة! ولما لأصوله الفقهية وقواعده الاستدلالية من مرونة قلما تجدها في مذهب آخر، بنفس السعة والشمول.

وأخيرًا، فتلك أهم الأخطاء المنهجية الاستصنامية، الأصلية والفرعية، التي استقريناها من مقولات العمل الإسلامي بالمغرب وتطوراته التاريخية، حركةً إسلاميةً، وتيارًا سلفيًا. ذكرناها بهذا التقييد موجزة؛ عسىٰ أن ينفع الله بها من كان مثلي من الغافلين! و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [سورة ق: ٣٧]. كذلك الأمر كان، والله المستعان.

خاتمة

وبعد،

ألم يَانِ للحركة الإسلامية أن تتوب إلىٰ ربها؟ وتُمَسِّكَ بكتابها؟ فتحطم أصنامها، وتكسر أغلالها! وتسلك مسلك التلاوة للكتاب، وتَلَقِّي التزكية من منازل الخوف والرجاء، ومقامات الافتقار إلىٰ الملك الوهاب. ثم تشرع في فتح طريق التعلم والتعليم للكتب والسنة؛ عسىٰ أن تشملها الرحمة، وتنطق بالحكمة، ويسلك بها الرحمن مسلك التسديد والتأييد.

فعل تعود الحركات الإسلامية إلىٰ إخلاصها التعبدي؟ وإلىٰ صلاحها المنهاجي وانتشارها الدعوي؟ وهل يعود خطابها إلىٰ حمل رسالة القرآن، وأخلاق القرآن؟ وأولويات القرآن؟ ثم هل تعود التيارات السلفية إلىٰ «سلفيتها»؟ وإلىٰ إخلاص دينها، والتعريف بربها؟ وترك شِقَاقِهَا ونفاقِها؟ ثم هل يعود التصوف إلىٰ روائه؟ وجمال صفائه؟ وترك غلوائه وشطحاته؟ وتصحيح منازله وأحواله؟ وعرض كل ذلك علىٰ قواعد العلم وموازين الكتاب والسنة؟

فالشريعةَ الشريعةَ! يا أبناء الحركات الإسلامية! ويا رواد التيارات الدينية، قبل أن يتفلت ما بقي من الدين بين أيديكم؛ فلا يبقىٰ لكم من الخير شيء! ونعوذ بالله أن يكون مَثَلُ أعمالنا ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] ويا لَحَظُّ امرئٍ رضيه الله عبدًا، ونالته ولايتُه؛ ففتح به وله!

ذلـــك، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [**الحشر: ٧-١٠**].

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه -بمكناسة الزيتون، من حواضر المغرب الأقصىٰ- عبد ربه، راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلىٰ رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تصنيفه في مسودته الأولىٰ يوم الجمعة: ٢٠ رمضان: ١٤٢٧هـ، الموافق لـ: ١٣/١٠/٢٠٠٦م.

انتهىٰ